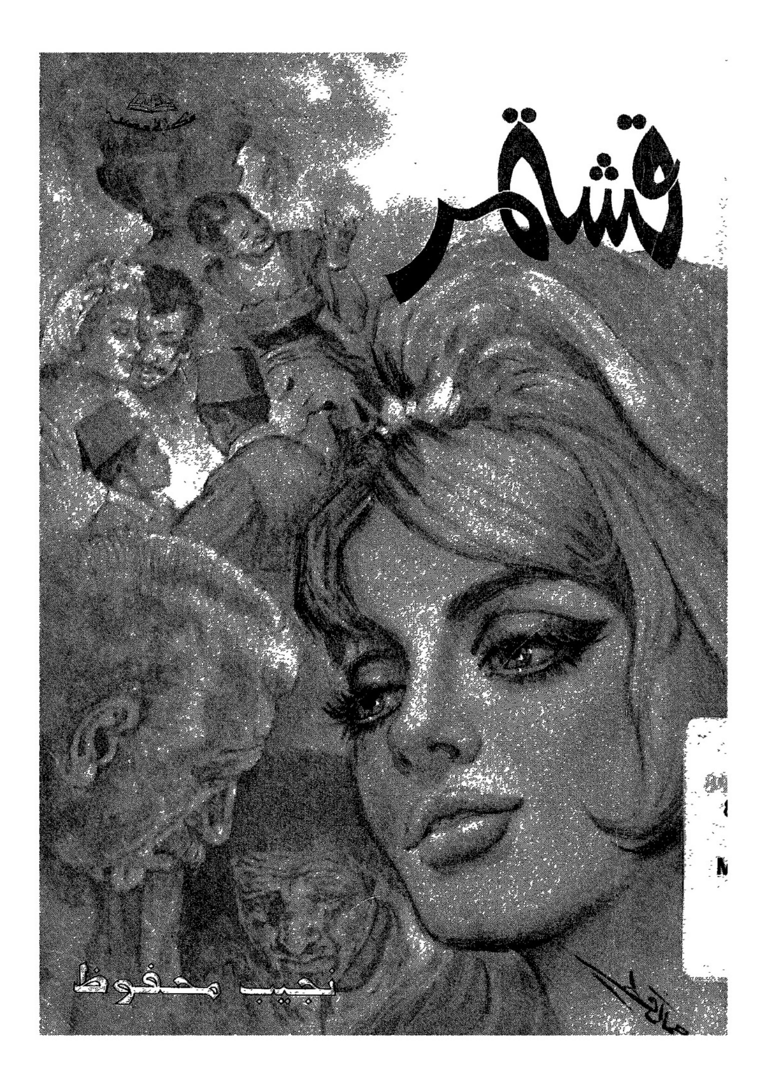

قشتمر
نجيب محفوظ

قشتمر

مطبوعات مكتبة مصر

قشتمر

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية

وجائزة نوبل العالمية للآداب ١٩٨٨

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة

سعيد جودة السحار وشركاه

العباسية فى شبابها المنطوى . واحة فى قلب صحراء مترامية . فى شرقيها تقوم السرايات كالقلاع وفى غربيها تتجاور البيوت الصغيرة مزهوة بجدتها وحدائقها الخلفية . تكتنفها من أكثر من ناحية حقول الخضر والنخيل والحناء وغابات التين الشوكى . يشملها هدوء عذب وسكينة سابغة لولا أزيز الترام الأبيض بين الحين والحين فى مسيرته الدائبة ما بين مصر الجديدة والعتبة الخضراء . ويهب عليها هواء الصحراء الجاف فيستعير من الحقول أطيابها مثيرا فى الصدور حبها المكنون . ولكن عند الأصيل يطوف بشوارعها عازف الربـاب المتسول بجلبـاب على اللحم ، حافيا جاحظ العينين ، يشدو بصوت أجش لا يخلو من تأثير نافذ :

آمــــنت لك يا دهــــــر ورجـــعت خنتنــــــى

* * *

بدأ التعارف عام ١٩١٥ فى فناء مدرسة البراموني الأولية . دخلوها فى الخامسة وغادروها فى التاسعة . ولدوا عام ١٩١٠ فى أشهر مختلفة ، لم يبارحوا حيهم حتى اليوم ، وسيدفنون فى قرافة باب النصر . تضخمت جماعتهم بمن انضم إليهم من الجيران ، جاوزوا العشرين عدا ، ولكن ذهب من ذهب بالانتقال من الحى أو بالموت ، وبقى خمسة لا يفترقون ولا تهن أواصرهم ، هؤلاء الأربعة والراوى . التحموا بتجانس روحى صمد للأحداث والزمن ، حتى التفاوت الطبقى لم ينل منه . إنها الصداقة فى كمالها وأبديتها . الخمسة واحد والواحد خمسة ، منذ الطفولة الخضراء وحتى الشيخوخة المتهاوية ، حتى الموت . اثنان منهم من العباسية الشرقية وإثنان من الغربية ، الراوى أيضا من الغربية ولكنه خارج الموضوع . وتتغير المصائر وتتفاوت الحظوظ ولكن تظل العباسية حينا وقشتمر مقهانا ، وفى أركانه تسجلت أصواتنا مخلدة البسمات والدموع

وخفقات لا حصر لها من قلب مصر .

* * *

قبل أن نهتدى إلى قشتمر جمعتنا الشوارع وميدان المستشفى والنخلة الرشيقة بحقل عم إبراهيم الممتد بين شارع مختار باشا من ناحية وبين الجناين من الناحية الأخرى . تطل عليه الحدائق الخلفية لمساكن كثيرة فى العباسية الغربية ، ويمدنا بما نحتاج من خضر ، فى جنوبه تقع غابة التين الشوكى وفى شماله ناحية الوايلية تدور الساقية التى ترويه وتنتشر حولها أشجار الحناء زافرة شذاها الطيب . فى العطلات الأسبوعية والصيفية نجلس تحت النخلة المغروسة فى وسطه ، تسيل أفواهنا بالحقائق والأساطير . ودل كل واحد على مسكنه لتتم المعرفة به فرأينا بيت صادق صفوان ببين الجناين ، وبيت إسماعيل قدرى سليمان بشارع حسن عيد وسراى حمادة يسرى الحلوانى بميدان المستشفى وفيللا طاهر عبيد الأرملاوى ببين السرايات . وأعجب صادق وإسماعيل بالسرايتين ، وتأملا حديقتيهما بانبهار ، وتمل رأساهما بالفخر وهما يعلنان صداقتهما باثنين من أولاد الذوات . وفى أوقات السمر تنهمر المعلومات عن الدنيا والآخرة .

يقول صادق صفوان النادى :

— بابا موظف بالأوقاف ، ونينة ماهرة فى كل شىء !

ونرى صفوان أفندى النادى فيجذب اهتمامنا من أول لحظة . نحيل الجسم مائل إلى القصر ولكنه ذو شارب غزير طويل لم نر مثله من قبل . مع التقدم فى العمر يصير شارب صفوان أفندى موضوعا مغريا بالتعليقات والقفش والتنكيت ويشاركنا صادق الضحك من أعماق قلبه رغم ما يكنه لوالده من حب واحترام . أما الأم تيزة زهرانة كريم فصادفتنا مرات فى الشارع فى تزيرتها السوداء ، ومن وراء البيشة .. تحذرنا من الترام ونحن نعبر الطريق . وتدعو لنا

بالسلامة . وصادق مؤدب مهذب ، ويصلى ، وسوف يصوم عندما يبلغ السابعة ، ولكنه لا إخوة له ولا أخوات ، بسبب مرض أصاب أمه عقب ولادته . هو وحيد الأسرة وأملها الباقى ، ونشعر كثيرا بأنه موضع الرعاية والعناية . غير أن أباه الحصيف يقول له كثيرا « يا صادق ، اجتهد ، أبوك لا يملك شيئا ليتركه لك ، فاجعل الشهادة وسيلتك إلى الوظيفة » . ودب تغير عميق فى روح صادق منذ طرق عالم قريب لهم هو رأفت باشا الزين . صحبه أبوه معه إلى زيارة ابن عمه الباشا بسراياه فى بين السرايات غير بعيد من فيللا طاهر عبيد الأرملاوى صديقه . يقول صادق وهو يلهث :

ـــ سراى ابن عم بابا مثل سرايا كم يا حمادة ، حديقتها تقارب غيط عم إبراهيم فى وسعها ، جامعة لأزهار الدنيا والآخرة ، والسلاملك ، والبهو الأزرق ، وبهو السفرة ، هائل .. هائل ، والباشا فى غاية العظمة ، وزبيدة هانم حرمه جميلة جمالا لا قبله ولا بعده ، وفى غاية الطيبة ، يحبون أبى وأمى ، كما لو أننا أغنياء مثلهم ، ابنهم محمود أكبر منى بعامين ، أما أميرة ابنتهم فهى أجمل من زبيدة هانم .. كل شىء يجنن !

بدأ حياته من صغار الأغنياء ، وبفضل ثروة زبيدة هانم أنشأ أكبر مصنع للنحاس ، ورزقه الله بالطول والعرض ، ومد حباله إلى الكبراء والسادة الإنجليز ثم نال رتبة الباشوية . ويقول صادق :

ـــ أهم شىء فى الدنيا أن تكون غنيا ..

حب الثراء غرس فى قلبه فى سراى قريبه . ينعكس ذلك فى أحلامه أكثر مما ينعكس فى اجتهاده . تلميذ متوسط كغالبية شلتنا . مسحور برأفت باشا وزبيدة هانم وأميرة التى تكبره بسبع سنوات . هم رموز للجنة ونعيمها . ويظل مثالا للمؤدب المؤمن ، وتقدم الأعوام لا يقلل من حيائه ، ولا تجرى على لسانه حكاية

مكشوفة ، وإذا جاء ذكر لبنت من البنات لاذ بالصمت أو راح يذكرنا بعذاب القبر وحساب الآخرة . ولمناسبة وفاة جده يقول بحيرة :

ــ نينة قالت لى إننا كلنا سنموت ..

لا يتصور أن تموت أمه أو يموت أبوه . وليس فى قوله جديد فيما يبدو ولكن شعورهم آمن بأن الموت حتم مؤجل إلى أجل غير مسمى . كلنا نسلم بالموت بألسنتنا أما قلوبنا فترمى به إلى موضع فى الزمان قصى . وبين حين وآخر تمر بنا الجنازات فى طريقها إلى القرافة فنرنو إليها بغير اكتراث كأنها أحداث لا تعنينا . وتحت النخلة السامقة نلهو بشد الحبل ، والتهام أطباق الدندورمة المصنوعة من البسكوت ، وتقليد المدرسين فى أطوارهم الخارقة للمألوف . ولا نكون وحدنا دائما ، فقد ينضم إلينا عشرة أو أكثر من أصدقاء الدرجة الثانية . فيهم نفر عرفوا بطول اللسان أو الخشونة أو حب العنف والأذى ، ولكنه يبقى الأساس كنواة صلبة لا يسمح لغريب باختراقها . ويدعونا صادق إلى وليمة غداء فيقدم لنا طعمية لذيذة وكفتة فاخرة وتشكيله من السلطات ثم طبقا من البرتقال اليافاوى . وتمطر السماء فى جو بارد فتتأخر فى بيته الصغير ببين الجناين حتى العصر . ويرد حمادة يسرى الحلوانى التحية فيدعونا للغداء فى السرايا بميدان المستشفى . تستقبلنا الحديقة المترامية بروائحها الطيبة وخضرتها المغسولة المشرقة . نمضى إلى بيت صغير مستقل بذاته فى الحديقة مكون من حجرتين وشرفة ومرافق . ثمة نافذة مفتوحة على الحديقة تتحرك الأغصان خارجها كالمراوح . تنتشر فى الأركان على قوائم خشبية أوراق عريضة مصمغة لصيد الذباب . أما الغداء فشواء وضلمة وسلطات ومهلبية . يتسابقون فى الأكل كشد الحبل دون كلفة . يتريضون بعد الغداء فى مماشى الحديقة . يرون « توفيق » شقيق حمادة الذى يكبره بأعوام ينطلق فوق دراجة خضراء ، ويلمحون

أفكار الشقيقة الكبرى بنت العشرين فى إحدى نوافذ القلعة . زيارة سعيدة لم يلم بها شيء من الارتباك إلا حين رأينا أدوات الطعام ــ الملعقة والشوكة والسكين ــ منظومة حول الطبق . ولكن إسماعيل قدرى سليمان بدد الارتباك حين قال :

ــ نحن لا نستعمل إلا الملعقة واليد !

وكان مما يحمده صادق لآل الزين باشا أن الباشا والهانم يأكلان كما يأكل والداه مجاملة ومحبة ، ولم يكن يستعمل الأدوات إلا محمود وأميرة . يقول صادق :

ــ ناس طيبون حقا ، كأنهم منا أو كأننا منهم ، وزبيدة هانم تحب الفسيخ وتطالب أبى بهدية منه ، ونينة تخبرها بأن لذته لا تتم إلا بتناول البصل ، فأكلت الفسيخ بالبصل ..

يروى الواقعة وكأنها معجزة فى العلاقات البشرية . على ذاك فهو أجمل شلتنا . معتدل القامة ذو بشرة تميل إلى البياض ، دقيق القسمات ذو عينين سوداوين جميلتين وشعر أسود ناعم .

* * *

ونعرف الشيء الكثير عن حمادة يسرى الحلوانى وأسرته . نشأة ملكية فى السراى . الباشا صاحب أكبر مصنع للحلاوة الطحينية فى القطر . حلاوة أرق من الهواء محشوة بالفستق ، وفى السرايا مكتبة هائلة وإن لم يتسع وقته للقراءة . رجل مال وأعمال . رأيناه كثيرا فى سيارته الفورد ، ربعة بدينا مبروم الشارب خمرى اللون تشع منه العظمة كما رأينا حرمه عفيفة هانم بدر الدين ، صورتها مقبولة ولكن فخامتها تفوق جمالها .

ــ بابا مشغول دائما ، ماما شديدة وتحب أن تطاع ، أختى تربت فى الميردى ديه واختارت لها ماما خطيبا غنيا ، وأخى توفيق يرضيها باجتهاده ، أما أنا فلا تكف عن لومى ومحاسبتى وتكرر على مسمعى بأنه لا قيمة للمال بدون

العلم والمركز ..

ويسأله إسماعيل قدرى :

ــ ولم لا تجتهد ؟

ــ أحب أن أقلب صفحات الكتب فى مكتبة بابا وأتفرج على الصور .

ــ ألا تحب أن تكون مثل أبيك ؟

ــ كلا ، يأخذنا ــ أنا وأخى ــ إلى المصنع ، أخى يهتم بكل شىء وأنا أتثاءب ..

فيسأله صادق صفوان :

ــ ماذا تريد أن تكون ؟

ــ لا أدرى ..

العلاقة بينه وبين أسرته متوترة باستثناء أفكار أخته التى يحبها ويقول بحسرة :

ــ ها هى تستعد لفراقنا ..

أبوه يطالبه بالاهتمام بمستقبله فى المصنع وأمه لا تكف عن لومه وأخوه يسخر من كسله . وقد مارس الصلاة فترة ثم تهرب من التزاماتها .. قال :

ــ لا يواظب على الصلاة إلا أبى ..

ويسأله صادق :

ــ وماما ؟

ــ لا تصلى .. ولا تصوم .. ماذا عن حرم رأفت باشا ؟

فابتسم صادق وقال :

ــ مثل مامتك رغم طيبتها المتناهية ..

ويغيب عنا شهرا كاملا فى الصيف عندما تسافر الأسرة إلى رأس البر للاصطياف.إنهم أصلا من دمياط والاصطياف فى رأس البر تقليد دمياطى .

ويحدثنا عن عشتهم وموج البحر ، حتى يسأله إسماعيل قدرى :

ــ هل حقيقى أن موج البحر يعلو كالجبال ؟

ــ وأكثر . والأهم من ذلك أن ترى التقاء النيل بالبحر .

إنه يفتن أخيلة صبية لا يبرحون القاهرة على طول العام ، حتى آل الأرملاوى يقضون عطلة قصيرة فى الريف .. وحمادة عميق السمرة ، يبشر نموه بقامة طويلة ، رأسه كبير فيه نبل واحترام ، ملامحه مقبولة ويمتاز بنظرة هادئة . وفى نهاية المرحلة الأولية وسنه تقترب من التاسعة مرض بالتيفود . وعزل فى حجرة خاصة بالسراى . كنا نزور السراى ولا يسمح لنا بدخول حجرته . غاب عنا شهرا ثم رجع إلينا كالخيال . وحدثنا عن مرضه طويلا ، كيف منع عنه الطعام دون أن تريده نفسه ، وكيف عضه الجوع فى فترة النقاهة وحيل بينه وبين الشبع حتى أوشك أن يفقد وعيه ، وكيف كشف له المرض عن حب الجميع له . ويقول متفلسفا :

ــ أصل البلوى كلها ذبابة !

وحتى فى تلك السن المبكرة تخايلت لأعيننا أهداف عن مستقبل بعيد ، إلا حمادة بدا غامضا لا نعرف له هدفا .

* * *

طاهر عبيد الأرملاوى من أحب الشخصيات إلى قلوبنا لخفة روحه وبساطته وميله إلى البدانة ، وهو أسمر وملامحه شعبية ولكن جاذبيته لا تقاوم . يقول :

ــ أنا تعبان لأنى وحيد والديه .

ــ ولكن لك شقيقتين ؟

ــ أنا الولد الوحيد ، بابا مصمم على أن يجعل منى طبيب مصر الأول .. وماما تصر على تعليمى الفرنسية من الآن ..

فيللا الدكتور عبيد الأرملاوى باشا غاية فى الأناقة رغم أنها دون السرايات ضخامة . والدكتور الباشا مدير للمعامل بوزارة الصحة وحاصل على الدكتوراه من النمسا ، تراه والحاجب يفتح له باب السيارة يتهادى فى جلال الميرى وأناقة الروح الأوروبية . يلوح دائما فى القمة رغم أن ثراءه دون الحلوانى أو الزين ، وبيننا وبينه بعد يجعله بمعزل عنا . ولم يرحب أبدا باختلاط ابنه بأبناء العباسية الغربية ولكن طاهر صارحه بأنه لا يمكن أن يقطع ما بينه وبين أصحابه . وإنصاف هانم القللى أم صديقنا ليست مجرد خريجة فى الميردى ديه مثل والدة حمادة ، إنها أيضا مثقفة وقارئة وذات عقل ممتاز ، وبفضلها كملت مكتبة الباشا العلمية بثمار الفكر والأدب .. واتفق رأيا الباشا والهانم على أن يجعلا من طاهر شخصا رفيع المقام .

وتسأله الهانم مرة :

— ما أحب المواد الدراسية إليك ؟

فيجيب بصراحة معهودة :

— المحفوظات .. مثل :

أيها الطائـــــر أهــــــلا بمحيـــــاك وسهـــــلا

حتى فى تلك السن المبكرة بدأ يحب الشعر ويحفظه . وربما وجد شعرا فى مجلة مما يوجد فى الفيللا فيسأل مامته أن تشرحه له ثم سرعان ما يحفظه . ويسعد الباشا بذلك ويقول لحرمه :

— الولد زكى وسيكون طبيبا مدهشا ..

وعرف طاهر دينه لأول مرة فى مدرسة البرامونى . لا ذكر للدين فى فيللا الأرملاوى ، لا بخير ولا بشر ، ولا ممارسة لأى شعيرة ، ورمضان والأعياد لا تكون شهورا دينية إلا بين الخدم . ورغم حصة الدين وتدين صادق صفوان

فيمكن القول بأن طاهر نشأ نشأة وثنية أو لا دينية مجردة . وتحية وهيام شقيقتاه كانتا تماثلانه فى ذلك ، ولكنه يقول عنهما :

— لهما صديقات كالأقمار يزرنهما ويجلسن معهما فى الحديقة .. كالأقمار ..!

ويتسلل إلى مجلسهن مسوقا برغبة مبهمة ، ويتلقى المداعبات كالورود ، وتنفجر فى أعماقه مسرة بريئة وجامحة مفصحة عن انفعاله الأول بالجنس الآخر . وفى عام من الأعوام دعيت الأسرة لقضاء أسبوعين بالإسكندرية عند خالته ، فسمعنا عن الإسكندرية كما سمعنا من قبل عن رأس البر . واستحم فى الحمام الخاص بالنساء فى سان استفانو مع مامته وشقيقتيه ودهش لمنظر الهوانم فى أردية البحر التى تشبه قمصان النوم ، وقال لنا ضاحكا :

— مثل الأبقار أو أضخم !

مامته إنصاف هانم القللى متوسطة العود ، خارجة عن تقاليد عصرها التى ترى فى البدانة رمزا للجمال فى عالمى النساء والرجال معا . ولكن بدا لنا أن شغفه الأول بالمحفوظات التى كان يرددها تحت النخلة فى غيط عم إبراهيم . وفتن أيضا بالسينما ليلة ذهبنا إليها أول مرة فى عيد من الأعياد بدار عرض « المنظر الجميل » بالظاهر . الحق أنها فتنتنا جميعا ولكنه جن بها جنونا . وضاعف من أشواقه أنه لم يكن يسمح لنا بمغادرة حدود العباسية إلا فى الأعياد ، غير أنه السينما احتلت موضعا هاما من حوارنا ، ولعبت بخيالنا أيما لعب ، وأصبحت قرية رعاة البقر وطننا الثانى يخفق القلب لمرآها ويثور الحنين .

* * *

وأيضا فلإسماعيل قدرى سليمان حديثه تحت النخلة . إنه أسمر قوى الجسم ذو عينين عسليتين جميلتين وأنف كبير ونظرة ذكية . بيته صغير ذو حديقة خلفية

بشارع حسن عيد ، يشبه بيت صادق صفوان بين الجناين . أبوه قدرى أفندى سليمان موظف بالسكك الحديدية يكاد يماثل ابنه فى الشبه لولا بدانته . يقول عن أبيه :

ــ أبى يستقل أى قطار فى القطر من غير أن يقطع تذكرة .

ويقول عن أمه ست فتحية عسل :

ــ أمى لا مثيل لها فى صنع الكعك والفطائر ..

له أربع أخوات سبقنه إلى الوجود ، حظهن من التعليم وقف عند حد محو الأمية ، وحجزن فى البيت لتأهيلهن لعمل ست البيت . كن متوسطات الجمال ، بل الحق أن إسماعيل يعد أجمل منهن ، ولكنهن تزوجن قبل أن يبلغن السادسة عشرة من موظفين صغار فى السكك الحديدية أيضا ، وفى سبيل ذلك باع قدرى أفندى سليمان البيت الوحيد الذى كان يملكه فى باب الشعرية . وقال لابنه إسماعيل :

ــ أما أنت فمستقبلك بيدك ..

ولم يخيب إسماعيل رجاء أبيه فهو أبرزنا فى المدرسة دون منازع . يذاكر ويحفظ ويتفوق ولا يشبع من ثناء المدرسين ولا من إعجابنا به . تتفق الآراء على أنه الفارس فى هذا الميدان . وهو ذكى لماح . عشق الدين كما عشق طاهر الشعر ، يصلى مثل صادق وصام فى سن السابعة . ولا يكف عن تصور الله فى هيئة جليلة لا حدود لعظمتها . ويسأل المدرس حتى يضيق به المدرس ويأمره بالتسليم والطاعة . وإلى ذلك فتجاربه كثيرة ومسلية . يقول مباهيا :

ــ فى حديقتنا الصغيرة أزرع البصل ، أسقى الزرع ، أجمع العنب والجوافة ، أصطاد الضفادع وأشق بطونها لأرى ما بداخلها ..

يسأله طاهر :

ــ تريد أن تكون طبيبا ؟

ــ ربما .. لا أدرى بعد ..

وبشغفه الغامض اندفع يجرب الجراحة فى يد خادمة صغيرة فجرح كفها ، وغضبت أمه غضبة عنيفة وهيأت له أنها ستفعل براحته مثلما فعل بالخادمة وهو يبكى ويتوسل ، ولما رجع أبوه من عمله وعلم بالذى كان قيد قدميه وضربه بعصاه خمسا !. ولعل ذلك كان ضمن الأسباب التى حولته عن التطلع للطب فيما بعد . ومن حكاياته المسلية ما يرويه عن زياراته لأخواته فى الأحياء الأخرى فيحكى لنا عن شبرا وروض الفرج والقبيسى والسيدة زينب . ودعى أبوه مرة لنزهة فى لونابارك بمصر الجديدة فاصطحبه معه ، فجن بها كما جن طاهر بالسينما ، هوِس وهوّسنا بالألعاب التى سحرته مثل القطار والقارب المتزحلق والغربال والمئذنة الحلزونية . أما مجد صباه الحقيقى فاستوى فوق سطح بيتهم الصغير . فوق السطح تربى الأرانب والدجاج وثمة حجرة للخزين ، وهو يتطوع لتقديم الماء والغذاء وتفقد المواليد وجمع البيض ، وتحت أمره إذا شاء فى حجرة الخزين السمن والمش والجبن والعسل الأسود ، بالإضافة إلى جدار السطح الذى جعل منه لوحة طويلة عريضة للرسم ، وفوقه السماء بطيورها ونجومها ، وله من الوحدة أحيانا فرصة للغناء ، وفرصة أجمل لدى استقبال بنات الأقارب والجيران . منذ ذلك العهد البعيد بدأ تجاربه مع الدين والجنس . يصلى فى ناحية ، ويندمج فى لعبة العروس والعريس فى ناحية أخرى . وأمه تطمئن إلى تدينه . فلا تشك فى عبثه . ويسأله صادق صفوان :

ــ ألا تخاف من الله ؟

يضحك ، يرتبك ، ولا يجيب . ذلك الصبى يتقدمنا فى كل شىء .

* * *

نجلس فوق النجيل عند أصل النخلة ، حمادة وطاهر يرتديان قميصا وبنطلونا قصيرا ، وصادق وإسماعيل فى جلبابين . عنايتنا بمظهرنا كاملة ، حمادة وطاهر يمشطان شعرهما الطويل أما صادق وإسماعيل فيحلقان رأسيهما نمرة ٣ . وبتأثير السينما شغلنا أنفسنا بتقوية أجسامنا وممارسة الألعاب الرياضية ومثلنا الأعلى فى ذلك بطل الفيلم « الشجيع » مثل توم مكس ووليم هارت وفير بانكس . وزعم كل منا أن أباه « بطل » واختلق له من الحكايات ما يثبت به ذلك مثل تغلبه على لص ضبطه فى البيت أو قهره لبلطجى تحدى الناس فى الطريق . ويحدث أن يتحرش بنا بعض الصبية فى الشوارع فنتصدى لهم متشجعين بخيالنا وسرعان ما تجئ النتيجة مخيبة للآمال ، فهؤلاء الصبية ينطحون بالرأس أو يضربون بالقباقيب . أما المودة فيما بيننا فهى صافية لا تشوبها شائبة . فى وقت انقسمنا فريقين بسبب السينما فتعصب فريق لماشست وآخر لفانتوم ، واحتدم النقاش بيننا ، وتكدر بعض الشيء صفونا ، ولكن لم تبدر من أحدنا كلمة نابية أو إشارة متحدية . نحن مجموعة تثير الحسد فى صدور من حولنا من الأقران .

* * *

وفى عام ١٩١٨ تقدمنا لامتحان القبول فى مدرسة الحسينية الابتدائية بعد أن ختمنا الدراسة الأولية وبلغنا التاسعة من العمر . وقفنا فى فناء المدرسة ننتظر إعلان النتيجة آملين ألا يفرق بيننا الدهر . ونجحنا والحمد لله . نجح إسماعيل قدرى بتفوق ، وصادق وحمادة مرا بسلام ، وعبر طاهر بفضل اسم أبيه الدكتور عبيد الأرملاوى ولتقارب أعمارنا جمعنا فصل واحد هو أولى رابع الذى اختص بأصغر المتقدمين سنا . ووزعوا علينا الكتب الجديدة فحملناها — كلها — آخر النهار معنا لتنعم برؤيتها الأسر . والتحق إسماعيل بفريق الأشبال لكرة القدم ثم انقطع يأسا من الإتقان ، وقدم صادق فى فريق التمثيل وسرعان ما

تركه ، أما حمادة فأراد الانضمام للكشافة ولكن الأسرة لم توافق . نلتقى فى فناء المدرسة للسمر السريع ، أما خارج المدرسة فاقتصرت اللقيا على يومى الخميس والجمعة ، فنذهب مساء الخميس إلى سينما المنظر الجميل ونقضى صباح الجمعة ــ إذا سمح الجو ــ عند أصل النخلة . وحافظ اجتهادنا على إيقاعه السابق ، فلم يتأثر بالتفوق إلا إسماعيل قدرى سليمان .

وذات مرة قال لنا حمادة يسرى الحلوانى :

ــ سمعت بابا يتحدث عن رجال ثلاثة ذهبوا إلى الإنجليز يطالبون باستقلال مصر !

وتساءلنا عن معنى ذلك فقال حمادة :

ــ أى أن يخرج الإنجليز من مصر .

لعلنا لم نكن نعرف عن الإنجليز إلا أنهم جيراننا فى العباسية حيث تقوم ثكناتهم ، وكثيرا ما نرى جنودهم فى الترام . ولأول مرة تنبض أسرنا بهذا الحديث الجديد . ووقعت واقعة فى مدرستنا نفسها . فى أعقاب ما عرف عن نفى الزعماء . المدرسة تجمع أجيالا متفاوتة فى العمر من التلاميذ دخلوها فى ظل أنظمة مختلفة . نحن أصغر الأجيال سنا ولكن يوجد تلاميذ فى السنة الرابعة بشوارب !. وذات صباح خرج من بين الصفوف تلميذ بشارب وصاح بصوت كالرعد « إضراب » . وحصلت استجابة وهياج . وأمر الناظر أولى رابع بأن تذهب فى رعاية المدرسين إلى الفصل مستأذنا الثائرين فى استثنائهم من الإضراب لحداثة سنهم . وهدر الفناء بالخطب الحماسية ، ثم تدفق التلاميذ إلى الخارج فى مظاهرة عاصفة . أول درس عملى نتلقاه فى الوطنية . سرى إلى قلوبنا الحماس رغم الغموض والجهل بما يقع . فى بيوتنا سمعنا أصداء ما يحدث فى الخارج تتردد بحرارة . لأول مرة يلتقى الآباء والأبناء فى عاطفة متأججة واحدة . حتى

(فشتمر)

الأمهات يصغين وينفعلن . أنباء المظاهرات يحملها إلى بيوتنا هواء ديسمبر البارد ولكننا نتلقاها دافئة بل ساخنة . ومصارع الشهداء تروى كالأساطير . دوريات الإنجليز تخترق شارعنا محمولة فى اللوريات مدججة بالسلاح . الهتافات تترامى إلينا من الحسينية جنوبا ومن الوايلية شمالا. سعد يحيا سعد ، الاستقلال التام أو الموت الزؤام . وتذاع الأخبار فى منازلنا :

ــ قطعت المواصلات .

ــ المظاهرات فى كل مكان .. الفلاحون يحاربون ..

زلزلت الأرض بغتة ولا تريد أن تسكت . تدفقت العواطف إلى قلوبنا لتخلقنا خلقا جديدا . اجتاح الحماس صادق وإسماعيل وحمادة ، وطاهر لم يخل أيضا من حماس . المنشورات توزع فتؤجج النيران المشتعلة . وحدث فى حينا حدث عظيم يوم اعتقل يسرى باشا الحلوانى منضما بذلك إلى طليعة الأبطال . ونظرنا إلى حمادة بإكبار . ويقول حمادة :

ــ بيتنا حزين ولكنه فخور ، لو حدث ذلك فى ظروف عادية لماتت ماما غما ..

واحتجاجا على هدوء طاهر النسبى سألناه :

ــ ماذا عن والدك ؟

فقال ضاحكا :

ــ بابا موظف ، وهو من رجال السلطان ، وهو مع ذلك مع الثورة ولكنه ..

فيسأله حمادة :

ــ ولكنه ماذا ؟

ــ له رأى خاص فى سعد !، لا يعجبه تاريخه ..

وقطبت الوجوه استياء فقال طاهر مخاطبا صادق :

— قريبك رأفت باشا الزين من رجال السلطان أيضا ..

فقال صادق :

— هذا الموقف يخصه وحده ولا شأن لنا به !

وغطى الحماس والقتال والضحايا على مسيرة الحياة اليومية . انحصرنا نحن فى عالمنا الصغير بين البيت والمدرسة . وفى المدرسة أصبح حمادة شخصية محبوبة يشار إليها بوصفه ابنا لبطل معتقل . وفى الفصل تطوع كل مدرس لتلفيننا درسا فى التربية الوطنية مستهينا بأمنه وسلامته ومستقبله . وبفضل أولئك المدرسين العظام عرفنا ما أخفى عنا من تاريخنا منذ الثورة العرابية ، وعرفنا سعد كمثال للقوة والنضال والذكاء والنزاهة منذ شبابه الأول . وثملنا بما سمعنا وانبثت فينا روح الوطنية التى لم تنتزع من قلوبنا حتى اليوم . وذاق البلد أول طعم للنصر بالإفراج عن الزعماء المنفيين ثم شهد أعجب يوم فى تاريخه يوم عودة سعد . وأطلق سراح يسرى باشا الحلوانى فيمن أطلق سراحهم ، رحبته جماهير العباسية والحسينية والوايلية لدى رجوعه إلى سراياه بميدان المستشفى . وبفضل صديقنا حمادة استطعنا أن نتخيل احتفال عودة سعد الذى شاهده من موضع حجز للأسرة فى فندق الكونتننتال . وشهدنا الأحداث تباعا ، فطرأ الخلاف بين سعد وعدلى على وحدة الثورة ، ووجدنا طاهر فى جانب وبقيتنا فى جانب آخر ، كما اختلفنا سابقا حول ماشست وفانتوم ، ولكننا — بخلاف الزعماء — حافظنا على مودتنا وصداقتنا الباقية .

* * *

وعلى حين يمضى البلد من كرب إلى كرب ، وينفى سعد للمرة الثانية ، ناهزنا جميعا البلوغ فى فترات متقاربة . ثورة تنفجر فى أجسادنا منذرة بالشر .

إسماعيل قدرى الوحيد الذى تعامل معها بجرأة فنقل ميدان عبثه الجنسى من سطح بيته إلى غابة التين الشوكى بغيظ عم إبراهيم ، أما صادق وحمادة وطاهر فكابدوا عذاب الغريزة تحت جناح البراءة والجهل .

وصادق صفوان يعيش فى بيت ينعم بالحب والوفاق والحياة الزوجية المستقرة ، وهو — كوحيد لوالديه — يحظى بكل رعاية ، غير أن البلوغ يعتبر من الأسرار المحظور الاقتراب منها . ترك مع بلوغه وتدينه بغير مرشد أو معين ، حتى قال لنا مرة :

— لا علاج لهذا الداء إلا بالزواج ، ولكن متى الزواج ؟!

وهو يحب والديه ولا يخاف منهما ، مثله فى ذلك مثل طاهر عبيد . وبدأ صفوان أفندى النادى يصطحبه معه إلى صلاة الجمعة بسيدى الكردى ، فننتظر حتى يرجع إلينا صادق فيسأله طاهر ضاحكا :

— ألا يدخل طرف شارب والدك فى عين من يجاوره عند السجود ؟

والأب لا يكف عن حث ابنه على الاجتهاد ليستقر فى وظيفة مناسبة طالما أنه لا مستقبل للفقير إلا الوظيفة . ويصارح صادق أباه بحلمه قائلا :

— أريد أن أكون غنيا مثل رأفت باشا ..

فيقول الرجل :

— الرزق بيد الله ولكن تفكيرك غير سليم .

— ألم يبدأ من مستوى قريب من مستوانا ؟!

فيقول صفوان أفندى ضجرا :

— لا تبدد طاقتك فى الأحلام الفارغة ..

ويقول له إسماعيل قدرى :

— كل إنسان يحب الثراء ولكن الحب شىء والعمل شىء آخر ..

سراى آل رأفت تعشعش فى دماغه بأناسها وجمالها ، وفتنة تواضعهم أكثر من أى شىء فى الوجود . ولا شك أن أميرة أيقظت قلبه من براءته ، رغم فارق السن ، ورغم أنها موشكة على الزواج ، بل إنها فتنت الجميع بطريقة ما .

* * *

وحمادة — ابن البطل — مضى يمتد طولا ورشاقة ، ويتجلى فيه مظهر ابن الذوات الأصيل . يتكلم بتؤدة ، ويشتق كلماته من قاموس مهذب ، ولعله كان ينعزل عن العالم فى كبرياء — مثل محمود بن رأفت باشا — لولا وقوعه فى صداقتنا ، ولم يتخل عن هذا الجانب الشعبى طيلة حياته . شد ما حزن لانتقال أخته أفكار إلى بيت الزوجية . هى الصديقة الوحيدة فى بيئة معادية . أخوه توفيق موضع الحظوة ومعقد الأمل . يتبادلان عواطف فاترة . قال له مرة :

— أصحابك لا يعجبوننى ..

فقال بحدة :

— ولكنهم يعجبوننى وهذا ما يهم ..

وسعى توفيق إلى إثارة الموضوع مع والدهما بحضور حمادة فقال الباشا :

— على المرء أن يحسن اختيار أصدقائه .

فقال حمادة :

— جميع أصدقائى من الطبقة التى ينتمى إليها زعيمنا سعد !

فضحك الباشا ولم يعقب . ويقول حمادة لنا :

— بابا يريدنى على أن أكرس حياتى للمصنع ، ولا يضايقنى شىء مثل أن ينصحنى بأن أقتدى بأخى توفيق ، ولكننى مدين لمكتبته بأسعد ساعات حياتى ..

ويقول طاهر :

ـــ لا شك أن أباك من كبار المطلعين ..

ـــ ربما كان كذلك على عهد الشباب ، أما اليوم فلا يحظى بالراحة إلا فى عطلة الأحد ..

ـــ ومامتك ؟

ـــ تقرأ الجرائد والمجلات وتستغرقها الحياة الاجتماعية ..

ويقول صادق صفوان :

ـــ ما دام يوجد رجال مثل الحلوانى والزين فالثراء ليس حلما فارغا !

ثم يسأل حمادة :

ـــ ألا تحب أن تكون غنيا مثل أبيك ؟

فيجيبه حمادة ضاحكا :

ـــ أحب المال طبعا ولكننى لا أحب المصنع ..

ـــ سيحل أخوك محل أبيك بعد عمر طويل ويصير ولى أمر الأسرة ، ماذا تكون أنت ؟، ماذا تريد أن تكون ؟

فيفكر فى شىء من الحيرة ثم يقول :

ـــ لا أدرى ، لم أحب عملا بعد ، ولكنى أحب الحياة ..

فيقول إسماعيل :

ـــ طاهر يحب الشعر .

فيقول حمادة بإصرار :

ـــ الحياة أجمل من الشعر والمصنع ..

وبعد تأمل طويل لأناقته يسأله إسماعيل بلا أى مناسبة :

ـــ ألا ينشب شجار أحيانا بين والديك ؟

يدهش حمادة ويسأله بدوره :

ـــ ما معنى سؤالك ؟

ـــ أريد حقيقة أن أعرف .

ـــ لا تخلو حياة من ذلك ..

ـــ كيف يجرى الشجار الزوجى فى طبقتكم ؟

فابتسم حمادة قائلا :

ـــ تندلع الحدة .. يقطبان .. أبى يقول يا هانم لا يليق كيت وكيت فتقول ماما يا باشا أنا لا أقبل سماع ذلك .. يا هانم .. يا باشا ..

فيسأله إسماعيل بجرأة :

ـــ ألم يسبها مرة قائلا يا بنت كذا وكذا ..

ويقهقه حمادة ثم يقول :

ـــ هذا عندكم لا عندنا يا حضرة ..

ويحدثنا عن حرص أبيه وتبذير أمه .

ـــ بابا ليس بخيلا كما يحلو لماما أن تتهمه أحيانا ولكنه يرى ألا يضيع قرش بدون سبب معقول ، ماما ترى أن السبب المعقول هذا يجب أن يشمل ما يروق لها من سلع شيكوريل وشملا ومحال التحف والأطعمة والأشربة التى تقدمها فى ولائمها بالإضافة إلى هدايا المناسبات ، وقد تمادت بالطول والعرض وهى تجهز أختى أفكار بالأثاث المستورد والحلى ، أما ليلة الدخلة فأحيتها منيرة المهدية وصالح عبد الحى ...

ويقهقه حمادة ثم يواصل حديثه :

ـــ ووصف بابا ماما قائلا يا هانم ما أنت إلا نسافة من نسافات الأسطول البريطانى ..

ومع ذلك فقد تبرع الباشا للوفد بعشرين ألفا من الجنيهات ، وتقدم فى الوقت

المناسب ليحل محل المنفيين فاعتقل واندرج فى سلك الأبطال . وسوف يكون نائب حينا الهادى الجميل فى البرلمان وتكون سراياه ركن الوفد الركين . ورغم ذلك كله فلم يساو حمادة صديقنا إسماعيل قدرى فى حماسه ووفديته ، وقلت لنفسى إن حمادة لم يرث عن أبيه مزاياه الفذة فى العمل والجهاد ، ، ورث البناء المتين والرأس الكبير والجبين العالى ، منظرٌ خُلِق للإدارة والسيادة ولكنه جرد من الولع بهما .

* * *

طاهر عبيد ينتمى إلى طبقة حمادة ولكنه بميله إلى البدانة ومرحه وبساطته يبدو كأنه منا تحت النخلة أسمعنا أول أشعاره ، ومضى يتعلم الفرنسية تلميذا محبا لمامته ، ويهيم بين أركان مكتبة القصر الفاخرة . وينتابه القلق أحيانا فيقول :

ــ أنا مطارد ، الويل لى إن لم أصبح طبيبا فذا !

فتنته بصديقات شقيقتيه غير خافية حتى سأله إسماعيل قدرى :

ــ أليس للسراى سطح ؟

فأجابه ضاحكا :

ــ لا سطح ولا غابة تين شوكى !

ذو هيئة شعبية ومزاج شعبى رغم نشأته فى فيللا نصف أوروبية . كيف أفلت من قبضة الباشا والهانم ؟. فى نظر الوالدين نحن نتحمل مسئولية السقوط . وهو أكول بطبعه ، وعلمناه نحن حب الرمرمة ، فعشق لحمة الرأس والفول والفلافل والممبار والكبد والمشبك والهريسة والكسكسى والباذنجان المخلل . بل تقدمنا جميعا فى الاقتباس من قاموس الشوارع والحوارى ورصع أشعاره الأولى بألفاظها المتمردة . وبدأنا طريقنا الثقافى بالقصص المؤلفة والمعربة أما هو فبدأها بالشعراء الثلاثة شوقى وحافظ ومطران . ورغم النقد والترشيد فالمرحلة

الابتدائية تعتبر أسعد أوقات حياته من ناحية العلاقة مع والديه أسعدهما بتعلمه الفرنسية ويحفظ الشعر وصوغه ، واعتبر الباشا ذلك كله من آى الذكاء المدخر للطب . ويتساءل طاهر فى حيرة :

ـ أى علاقة بين الشعر والطب ؟!

وكنا بوحى من غريزة حب البقاء نتجنب الاقتراب من فيللا الأرملاوى باشا أن تقع علينا عينا الباشا أو الهانم . والحق أن فضلا عير منكور يرجع إلينا فى تفجير موهبته الشعبية التى ازدان بها شعره بعد ذلك . بل جررناه معنا لاستقبال سعد حين عودته من منفاه الثانى . كونت شلتنا موجة صغيرة فى بحر متلاطم هدرت أمواجه فى ميدان الأوبرا . لم نشهد فى حياتنا منظرا رائعا كذلك المنظر . وابتلعتنا حومة الحماس وفرحة النصر وعزة الجماهير الملتحمة ، وانسربت إلى قلوبنا الفتية عواطف متأججة وتيارات فدائية ومشاعر مجنحة تطير فى الفضاء فوق هموم الحياة اليومية . ورددنا الهتافات لمصر وسعد حتى بحت أصواتنا ، وثمل طاهر بالسكرة الطارئة فنسى موقف أسرته من الزعيم القادم . وعندما هلت علينا سيارة الشيخ ، عندما لمحنا من موقعنا فوق سور الأزبكية قامته المترامية ، ووقاره الجذاب ، جن جنوننا ، واشتعلت جوارحنا بنيران مقدسة ، واختزن وعينا فى سراديبه .. يوما وذكرى وصورة لم يعد فى الإمكان أن تتلاشى . واستقبلت العباسية بعد ذلك التاريخ أياما سعيدة صاخبة ، فسمعنا لأول مرة عن الانتخابات والبرلمان ، وطفنا بالسرادقات ، واستمعنا إلى الخطب والأشعار والأزجال ، ولم يكن آن الأوان بعد لنسجل أسماءنا فى الناخبين . وعن طريق طاهر عرفنا رأى الباشا أبيه فيما يجرى حولنا . فهو يرى مثلا أنه من التهريج أن يتم اختيار الحكام بهذه الطريقة البهلوانية ، وأننا نقلد أوروبا فى النتائج متجاهلين المقدمات والأسس . بخلاف يسرى باشا الحلوانى الذى أكد لنا فى خطبته

الختامية أن صوت الشعب من صوت الله . والواقع أنه لم يكن خطيبا مفوّها، ولكن الحفل كان حافلا بالخطباء والشعراء ، على حين أضفى عليه إعتقاله هالة من العظمة والجاذبية . وقال طاهر لأبيه :

ـــ النفى والسجن والاعتقال هى مؤهلات المعركة .

فقال الباشا بازدراء :

ـــ الحكم علم وخبرة ومقدرة لا نفى أو سجن أو اعتقال ..

ولم تكن إنصاف هانم القللى دون زوجها فى احتقاره لما يجرى ..

* * *

لإسماعيل قدرى علينا ما يشبه القيادة . هذا حقه لتفوقه المدرسى ، وللتفوق المدرسى امتياز لا ينكر . وله منزلة خاصة عند المدرسين ، بالإضافة إلى الإثارة التى يبعثها بسبب مغامراته الجنسية . وهو منذ البلوغ غدا موضع التفات خاص من أمه فضاعت من يديه فرصة السطح . وتحول بغريزته إلى غابة التين الشوكى يستدرج إليها صغار البائعات المتجولات . وثابر رغم ذلك على تذينه مثل صادق صفوان ، وأثرت خزانته بمعلومات كثيرة استمدها من أمه عن الآخرة والحساب وعذاب القبر ، وظل على شغفه بتخيل صورة لله ، حتى قال لنا مرة :

ـــ لعله شيء مثل سعد ولكنه يمارس سلطانه فى الكون كله !

وضحك طاهر وعلق على ذلك قائلا :

ـــ عرفت الآن لماذا لا يصلى أبى ..!

وهو يحظى بسعادة لما يحرز من منزلة بيتنا فيعوضه ذلك عن بساطة أسرته . إنه الوحيد بينهم الذى تخلو شجرته من أى فرع ذى امتياز . حتى صادق صفوان وهو يماثله فى المستوى يمت بصلة قربى إلى رأفت باشا الزين أما هو فلا قريب له يبل الريق . والبيت القديم الذى ورثه أبوه باعه وهو يزوج أخواته . لذلك

فعندما انجذبنا جميعا نحو الثقافة كان يستعير الكتب للقراءة الحرة من مكتبتى حمادة وطاهر . ولم يشغله شيء عن إحساسه الوطنى وحماسه الفائق للوفد الذى بلغ درجة من الحرارة لا تكون إلا للعقيدة الدينية . وهذا ما جعله يتجه نحو مدرسة الحقوق فتنة بالقانون والمجد والسياسة . لم يعد الطب ولا الهندسة مما يشبع طموحه بعد أن أصبح سعد زغلول مثله الأعلى فى الحياة . وهو الذى حرض طاهر على والديه قائلا :

— السمع والطاعة للموهبة ..

ويضايقه ولا شك هذا السؤال الذى يلحون به عليه « كيف تجمع بين العبادة ومغامرات الغابة ؟! » .. فقال لنا يوما :

— عقب كل صلاة أستغفر الله كثيرا .. ولكن ما الحيلة مع نيران متأججة ؟!

* * *

وفى غمرة الأحداث والحماس استعد كل منا لامتحان الشهادة الابتدائية . ونجحنا جميعا . إسماعيل فى المقدمة ونحن وراءه . والتحقنا بمدرسة فؤاد الأول الثانوية لنمضى بها خمسة أعوام ما بين ١٩٢٣ و١٩٢٨ . ولأول مرة نرتدى البنطلون الطويل ونقلع عن شراء البدل الجاهزة . أعوام انقضت فى مراهقة وسياسة وثقافة وحب . وفى عامنا الدراسى الأول هدانا الهادى إلى مقهى قشتمر . إنه أحد أفراد شلتنا الهامة التى تلاشت تدريجيا مع الزمن ويدعى الصباغ . قال لنا ذات يوم :

— مجلسنا تحت النخلة لم يعد بالمكان المناسب ، عثرت لكم على مقهى مناسب .

روعتنا لفظة المقهى الذى يعتبر عند أهلنا من المحرمات . كيف نجلس بين

رجال فى سن آبائنا وهم يدخنون النارجيلة ؟!. وقال الصباغ :

ـــ لا تكونوا جبناء ، آباؤنا توظفوا بالشهادة التى حصلتم عليها فى الصيف الماضى ، والمقهى بعيد عن الأنظار ، يقع عند التقاء الظاهر بشارع فاروق ، صغير وجديد وجميل وذو حديقة صيفية صغيرة ، وما علينا إلا أن نختار ركنا منزويا للسمر ولعب الطاولة وشرب الشاى والقرفة والقازوزة ..

وفى سرية تامة تلمسنا طريقنا إلى الظاهر ، تسوقنا روح المغامرة ، ويعتمل فى ضمائرنا إحساس بالذنب . وطالعنا قشتمر بلونه الأخضر الزاهى ، وحجمه المحدود الذى لا يزيد عن حجم بهو بسراى الزين باشا ـــ كما قال صادق ـــ ومراياه المثبتة فى الجدران ، وحديقته الصغيرة الموصولة به بباب صغير مفتوح ، تنطلق بأركانها نخلات أربع ، ويقوم فى الوسط عدد من الموائد فى صورة مربع متساوى الأضلاع . أشار صاحبنا إلى مائدة فى عمق المكان فى أقرب موضع إلى منصة الشغل فاتجهنا نحوها متجنبين الأنظار من شدة الحياء والارتباك . بدونا نبتا جديدا فى عمره ومنظره ، ودخل ثلاثة منا فى جلابيبهم . وعلى رف وراء المنصة اصطفت التراجيل وقوارير المشروبات فضاعفت من ارتياعنا . جلسنا حول المائدة نتلقى النظرات المستطلعة بوجوه ساخنة حتى جاءنا النادل وبدأت الممارسة الجديدة . هكذا عرفنا قشتمر فى أواخر ١٩٢٣ أو أوائل ١٩٢٤ ، ودون أن ندرى أنه سينعقد بيننا وبينه زواج لا انفصام له ، وأنه سيصغى بصبر وتسامح إلى حوارنا وأساطيرنا عمرا طويلا ، بل ما زال يصغى مستوصيا بصبره وتسامحه . وفى ذلك الوقت اشتركنا ولأول مرة فى مظاهرة وطنية . لم نعد أطفالا من ناحية والمظاهرة مأمونة العواقب من ناحية أخرى فوزارة الداخلية هذه المرة بيد زعيم الأمة ورئيس الوزراء . فى أثناء طابور الصباح خرج رئيس الطلبة من الصف وصاح بصوته الجهورى « إضراب » . واندفعت الصفوف نحوه فى

عجلة ولهوجة فخطبهم مركزا على أزمة بين الزعيم والملك وأن على الشعب أن يتجمع فى ميدان عابدين لتأييد الزعيم دون قيد أو شرط . وماج الميدان بالخلق من كل صنف ، كيوم الاستقبال ، ولكنه يفور هذه المرة بالغضب ، ويهتف من أعماقه « سعد أو الثورة » . تخلف طاهر الأرملاوى عن الاشتراك فى المظاهرة فتركناه لرأيه . ولدى عودتنا سأل صادق صفوان :

— ولكن ما أسباب الأزمة ؟

ووضح لنا أننا لا ندرى عنها شيئا ولكن إسماعيل قدرى قال بحزم :

— نحن على أى حال مع سعد لسبب وبغير سبب وضد الملك بسبب وبغير ما سبب ..

واتفقت قلوبنا على ذلك . ومما يذكر أننا لم نعرف أسباب الأزمة أو لم نهتم بمعرفتها إلا بعد انقضاء أعوام طويلة ونحن نسترجع الأحداث بعد أن صارت تاريخا . فى ذلك الزمان صهرنا الوفد فى أتون وطنيته فبعثنا على يديه خلقا جديدا . ويوما قال إسماعيل قدرى :

— فى مصر أربعة أديان ، الإسلام والمسيحية واليهودية والوفد .

فقال طاهر عبيد ساخرا :

— والدين الأخير أعظمها انتشارا !

علمنا الوفد ماذا نحب وماذا نكره ، وبأى قوة نحب وبأى قوة نكره ، واجتاحتنا القضية الوطنية وملكت قلوبنا ، غطت على الأسرة والمستقبل والأمل الشخصى . واندفعنا مع طوفان الحزبية بنفس القوة والعنف ونبضت كل خلية من خلايانا بالحياة والإصرار ، وعجبنا للزين باشا والأرملاوى باشا وأحزابهما ، أهم من البشر أم من شواذ الخلق والطبيعة ؟!

وإلى جانب السياسة هبت علينا رياح الثقافة المنعشة البيضاء ، التهمنا المجلات

الأسبوعية والشهرية والكتب المؤلفة والمترجمة ، وتنورت رءوسنا بمصابيح مشعة مثل المنفلوطى والعقاد وطه حسين والمازنى وهيكل وسلامة موسى ، ودار الحوار حول الفكر كما يدور حول السياسة ، وشملت اليقظة العقل والقلب والإرادة .

صادق صفوان رسم بتقواه لنفسه حدودا لا يتعداها ، أحب المنفلوطى والرواد ولكنه أغلق وعيه دون ما يمس العقيدة أو يثير الشك . وإذا جاوز الحوار فى قشتمر الحدود والتقاليد لاذ بالصمت واستغفر الله . ولم يضعف شىء من حلمه القديم بالثروة ولا بإعجابه الثابت برأفت باشا قريبه مع استثناء الجانب السياسى . ويقول بطمأنينة :

ــ موقفه السياسى لا يمس مودتنا الراسخة ، ويعاتب أبى كثيرا فى رفق متسائلا إلى متى يا خالى تنخدع بذلك الرجل المهرج ؟، أو يقول لى وأنت يا صادق تتبع والدك بلا تفكير ، هل اشتركت حقا فى المظاهرة الوقحة بميدان عابدين ؟، أراهن أنك لا تعرف لها سببا ، وأرجو ألا تعتاد المظاهرات فهى اليوم آمنة ولكنها لن تكون كذلك إلى الأبد ، كم ضاعت من أرواح فداء للعجوز الأنانى .

وتضحك زبيدة هانم من قلبها وتقول لأمى مداعبة :

ــ مبارك يا زهرانة ، ابنك زعيم من يومه !

مازال صادق مفتونا بالباشا وقصره وتحفه وزوجه وتواضعه ، وإعجابه بأميرة لم ينضب حتى بعد انتقالها إلى بيت زوجها .

ويقول له إسماعيل قدرى :

ــ لا عيب فيك إلا حلمك الغريب بالثراء ..

فيقول صادق :

— الثراء يبدأ بحلم ..

— لماذا لا تسأل قريبك عن طريق الثروة ؟!

— هممت أن أفعل مرة ، وشاورت نينة فهالها تفكيرى وحذرتنى من مغبته أن يتهمنى الباشا بالحسد ..

إنه شخصية متكاملة وتقليدية ولكنه نصب لنفسه هدفا بدا لنا غير معقول .

أما حمادة الحلوانى — كالآخرين — فقد فتح نوافذه للثقافة دون قيد أو شرط . ويصر على أن يروى لنا فى ليلته ما قرأه بالأمس . رواية المسحور المنبهر المصدق دون أن يجشم نفسه عناء النقد . يقول :

— الثقافة هجمة ضاربة ، أتيحت لنا لتوقظنا من سبات ..

فإذا كانت آخر قراءة عن الدين لخصها بنبرته المترفعة ، ثم يقول بيقين :

— هذا هو القول الفصل فى الدين !

وتدور المناقشة بين أطراف متناقضة . ولم يكن حمادة فى الأصل صاحب عقيدة راسخة فلم يكابد أزمة حقيقية . ونسمعه تارة أخرى وهو يقول :

— هذه هى قصة الإنسان وهذا هو أصله ..

ثم حدث أن قرأ كتابا معتدلا عن الدين والعلم فإذا به يقول :

— يبدو أنه لا يوجد تناقض بين الدين والعلم !

إنه عميق التأثر بما يعرف ، وسرعان ما ينتقل من حال إلى حال . يمتنع عن أى تعريف أو وصف . ليلة مع الليبرالية وأخرى مع الاشتراكية . وقد سأله صادق :

— ولكن من أنت ؟

فأجاب بحيرة :

— أمامى طريق طويل ..

طاهر عبيد يبدو ذا هدف واضح وموقف واضح . لا يشك أحد منا فى شاعريته . إنه يحفظ الشعر ويتذوقه وبدأ يبدعه . ويحب الزجل أيضا . أسمعَنا أول ما أسمعنا غزَلا فى صديقات شقيقتيه ، وألَّف زجلا فكاهيا عن شارب صفوان أفندى النادى والد صادق . ونهل من كتابات الرواد فلم يقتصر اطّلاعه على الشعراء الثلاثة أو مختارات أبى تمام والبحترى . وقال لنا :

ـــ عما قريب سأقرأ بالفرنسية ..

ولم تضف الثقافة الحديثة جديدا إلى عقيدته ، فقد نشأ بلا دين تقريبا ، لم يثر الدين اهتمامه ولا شغل تفكيره ، ولكنه هام بالشعب والجمال والأغانى ، وكان ضميره عامرا بالقيم الرفيعة ، وإن تكن نشأته فى فيللا الأرملاوى قد أقصته عن المجال السحرى لسعد زغلول فإنها لم تربطه بالولاء للملك ، ثم جاءت المعارك الحزبية فشحنته بالقرف والكفر بالجميع . وكان يقول :

ـــ مصر جديرة بالحب ولكنها لم تجد بعدُ من يحبها لذاتها ..

إسماعيل قدرى لا يقرأ بغزارةِ حمادة ، ولكنه يفكر فيما يقرأ ويناقشه . وقد عبر عن موقف عندما قال :

ـــ الثقافة الحديثة تحتشد للهجوم على حصن الدين والتراث ..

وزاد قوله تفسيرا فقال :

ـــ إنها تبدأ بالخرافات فتبددها ثم تتصدى للمسائل الكبرى ..

فسأله صادق صفوان بقلق :

ـــ هل أخذ الشك يوسوس فى صدرك أنت أيضا ؟

فتملاه بنظرة طويلة ثم قال :

ـــ ليس للفكر حدود ..

فقال طاهر عبيد ضاحكا :

ـــ دعنى أهنئك !

فقال مقطبا :

ـــ الدين موضوع ، والله موضوع آخر ..

فضرب صادق كفاً على كف وقال :

ـــ اسمعوا العجب ..

يبدو أنه يفكر ويشك ، ولم يسْلم من شكه إلا الوفد ، ومال فى اطلاعه إلى المعرفة أكثر من الفن والأدب . ومن ناحية المستقبل ركز على القانون باعتباره الباب المفضى إلى المجد والسياسة . ونحن نؤمن به ونثق فى قدراته وفى بلوغه هدفه فى النهاية . وعلى حين تستوى الثقافة كغاية فى حياة حمادة الحلوانى ، فهى تلعب فى حياة إسماعيل دور الدعائم التى يقيم فوقها بناءه الشامخ . إنه رجل عمل لا قلم ، وأحلامه مقدمات لأفعال ، وهو يتقدم بخطوات راسخة رغم فقره وانعدام زاده من ذوى الجاه والنفوذ .

* * *

ومع الثقافة اشتعلت نيران الجنس . أقسى من الشك وأعند إلحاحا . تطاردنا ليل نهار . وزاغت الأبصار متطلعة إلى مجالات الجنس اللطيف . كلما لاح فى نافذة أو خطر فى طريق . تسترق النظر إلى الوجوه والسيقان وتكوين الأجسام التى تنبض به الملابس الفضفاضة . أصبح إسماعيل موضع حسد ولكنه لم يكن دون الآخرين معاناة .

وذات يوم جاءنا الصباغ بكتاب متسائلا :

ـــ هل سمعتم عن هذا الكتاب ؟

غلافه من الخارج يدل على أنه كتاب تاريخ ، وقد غطى به لإخفاء عنوانه الحقيقى وهو رجوع الشيخ . ونصحنا بقراءته سرا . تبادلناه واحدا بعد الآخر .

(قشتمر)

مررنا بسرعة على أبوابه لنقع فى قبضة حكاياته . أججت نيراننا وأمدتها بوقود من العفاريت . ولما تأكد الصباغ من ضياع العقول شرع يحدث عن حى البغاء ، وسأله صادق ذاهلا :

ـــ والحكومة تعلم ؟

فأجاب بنبرة خبير :

ـــ الحكومة تعطى الرخص وتحفظ الأمن بالمكان ..

ويوم الخميس عدلنا عن سينما المنظر الجميل إلى كلوت بك . تقدم وسرنا خلفه ونحن من الدهشة فى غاية ومن الخوف فى نهاية . هذه البيوت القديمة مرصعة مداخلها بالنساء من كل شكل ولون ، وهمس حمادة :

ـــ ما أشد الزحام ..

فقال صادق :

ـــ لنرجع بسرعة قبل أن نفتضح !

وقال الصباغ ساخرا :

ـــ هل يتوقع أحدكم أن يقابل أباه هنا ؟ .. كل زبون هنا فى حاله ، تقدموا ولا تكونوا جبناء .. اختاروا وبسرعة ..

ووجدنا أن الاختفاء فى بيت أخف من البقاء وسط الجمهور . والتقينا عند رأس الطريق ونحن نتبادل نظرات باهتة ولزمنا الصمت حتى جمعتنا مائدتنا فى قشتمر . ونفد صبر كل واحد فى معرفة ما وقع للآخرين . وكان صادق أول المعترفين فقال :

ـــ الأولى والأخيرة ..

ـــ لماذا ؟

ـــ من ناحية الجمال لا بأس بها ، الحجرة على البلاط ، فراش ومرآة وكنبة

قديمة ، أشارت إلى طبق ساج فوق الكنبة وطلبَت بقِلة ذوق أن أضع النقود ، وضعت النقود ، وبسرعة نزعَت الفستان الأحمر عن جسم عار ، استلقَت مشيرة بيدها إشارة تدل على السرعة ، أنا بردت وكأنى ما عرفْت الشهوة ، قلت بأدب : أشكرك أنا ذاهب . فجلست وهى تقول : مع السلامة ... أعوذ بالله .. هى الأولى والأخيرة ..

روّحنا عن أنفسنا بالضحك فتشجع طاهر وقال :

— وجدت فلاحة على ذقنها وشم باسِمة الثغر ، اتجهْت نحوها فسبقتنى إلى السلم ، لم أهتم بالحجرة ، قالت لى : أنت مثل البغل رغم صغر سنك ، وضحكَت فضحكْت ولكنى تضايقت ، وبردت كما برد صادق . وشعرت بغربة شديدة . وسرعان ما تغير رأيى فقلت لها : لا مؤاخذة أنا غير مستعد هذه المرة . فقالت : أنت حر ولكن لا بد من الدفع ، فدفعت القروش وأسرعتُ نحو الباب وهى تقول لى : لك قفا يغرى بالصفع . فزدت من سرعتى كالهارب ..

وضحكنا طويلا ، وقال صادق :

— الأولى والأخيرة أيضا ؟

ولكنه لم يجب ، وقال حمادة الحلوانى :

— تجربة موفقة من حسن الحظ ، أعجبتنى عيناها ، وكانت مؤدبة ومشجعة ، تركتنى أحضنها ونحن واقفان ، وتم كل شيء بسرعة .. لا بأس !

واتجهت الأبصار نحو إسماعيل قدرى ونحن نتوقع أفضل النتائج بوصفه صاحب الخبرة الوحيد فينا . وضحك أكثر من عادته وقال :

— فتاتى صغيرة السن والجسم مقبولة ، ولما ضمتنا الحجرة معاً دخلت امرأة بين الأربعين والخمسين ، ضخمة الجسم قوية الشخصية ، فهرعت إليها الفتاة بأدب ودار بينهما تهامس عن العمل غالبا ثم غادرت الحجرة . وأصارحكم بأنى

رغبت فى المرأة التى لم يفسدها الكِبَر بعد . وبجرأة قلت للفتاة : إننى أريد المرأة . فدهشَت وقالت : إنها المعلّمة وليست لذلك . فطلبْت منها أن تبلغها رغبتى ، فترددَت قليلا ثم ذهبت . وما لبثت المرأة أن دخلت وأغلقت الباب وهى تقول بصوت غليظ : ادفع الضعف . فقلت لها : إننى لا أملك إلا عشرة قروش . فلم ترفض وضممتها إلىّ وذراعاى لا تحيطان بها من جسامتها ، وكنت فى غاية الانبساط ..

فهتف طاهر عبيد :

ـــ أنت إنسان غير طبيعى ..

وانقطع عنا الصباغ بسبب ما ، ولكننا لم ننقطع عن كلوت بك . صادق صفوان الوحيد الذى لم يكرر التجربة بعد أن أثار الحى كله اشمئزازه ولم يتفق مع تدينه وذوقه . طاهر لم يتخلف ولكنه كان فى الغالب يجلس فى مقهى بلدى يسمع العربى ويتأمل الخلق . وعنَّ له رأى فى الموضع فقال :

ـــ هذا معرض للنساء والرجال فى غاية الشذوذ والسوء ، فعلى مريده أن يفقد وعيه أولا قبل أن يقدِم عليه ..

* * *

ومع السياسة والثقافة والجنس أشرق علينا الحب بنوره . وأول من ثمل بخمره المطهرة كان صادق صفوان ، يوم رأى إحسان بصحبة أمها ست فاطمة يغادران مسكنهما بشارع أبو خودة . صاحبنا كان فى السادسة عشرة وإحسان بنت ثلاثة عشر . كلما مررنا قريبا من المسكن فى طريقنا إلى قشتمر ارتفعت عيناه بين خدين مضرجين إلى النافذة بالدور الثانى . وإحسان أنضج من سنها بكثير ، ممتلئة الجسم فى رشاقة ، ووجهها مستدير مائل للبياض ، وشعرها كستنائى غزير ، وعيناها عسليتان صافيتان ، وثغرها غاية فى الدقة ، يوصف عادة بأنه خاتم

سليمان . ووضح للجميع أن البنت معجبة به ، أو على الأقل معجبة بإعجابه بها .

وقال لنا صادق بنشوة :

ـــ البنت مثل التفاحة ..

وكلها حيوية ، وعرفنا أن أباها يُدعى إبراهيم الوالى موظف صغير كثير العيال . وسأله طاهر عبيد :

ـــ هل عرفت الآن ما هو الحب ؟

فقال صادق فى غير قليل من الارتباك :

ـــ أنا منبهر بخفتها ، وتدور بى الأرض عندما تلقى علىّ نظرة ، وكلما تذكرتها شعرتُ بسعادة عجيبة ..

فقال طاهر عبيد :

ـــ شعرت بمثل ذلك نحو مارى بكفورد ، وبشىء شبيه به نحو صديقات شقيقتى فى زمن مضى ..

فقال صادق :

ـــ إنك لم تحب بعد ..

وقال إسماعيل قدرى :

ـــ أنا أسيطر على نفسى بفضل غابة التين الشوكى وكلوت بك وانهماكى فى العمل . لى جارة بنت الجيران ولكن لا صبر لى على إهمال عملى والوقوف فى النافذة .

والتفت حمادة الحلوانى نحو صادق قائلا :

ـــ ها أنت تحب ، فما الخطوة التالية ؟!

فقال ضاحكا :

ـــ صبركم ، أنا لم أفق بعد ..

وطاهر عبيد أثارنا بشِعره قبل أن يثيرنا بحبه . فاجأنا بنشر أول قصيدة غزَلية له فى مجلة الفكر . ظهرت القصيدة تحت عنوان « الجميلات فى الحديقة » ، فى مجلة عريقة منتشرة ومعروفة بالدعوة لروح العصر والتقدمية . إنه تقدير بكل معنى الكلمة . واهتز ركن قشتمر سرورا وطربا ، وقال حمادة :

ــ نحن نشهد ميلاد شاعر ..

وسأله صادق باهتمام :

ــ هل علم بالنشر والداك ؟!

فضحك طاهر وقال :

ــ الإعجاب بموهبتى فى نطاق الفيللا يسعدهما ويعتبرانه تمهيدا لموهبتى المدخرة للطب اللعين ، ولكن بابا وجم حينما اطلع على القصيدة فى باب الشعر بمجلة الفكر وقال بامتعاض شديد : هذا شغل أدباتية ولا يليق بمقامك ، فقلت له : ولكن شوقى بك شاعر يا بابا ، فقال : إن شوقى أمير من البيت المالك أولا وأخيرا ، أما الشعر فى ذاته فحرفة الشحاذين ...

على أى حال لم يفسد عليه ذلك سعادته بنشر قصيدته ، ونصحه إسماعيل قدرى بزيارة المجلة للشكر والتعارف وتوثيق العلاقة ففعل . وهناك اكتسب علاقات زمالة جديدة ، وعرف المبادئ التقدمية من خلال نخبة من المؤمنين بها ، وتعاطف مع الإرادة الطامحة لهدم العالم القديم كله وإقامة بناء جديد موضعه على أسس علمية معاصرة . وكأنما ودَّ أن تبيد مع العالم القديم أفكار أبيه الكئيبة ، ولكن التعاطف لم يتجاوز به حدود الصداقة للمبدأ ومعتنقيه دون الالتزام بمبادئه أو الاندماج فى سلوكياته . وفى ذلك الوقت خرج من شرنقة الهيام الغامض إلى حومة تجربة حقيقية . رآه صادق يوما ينتظر أمام صيدلية العباسية ليرى رئيفة حمزة وهى تغادرها . بنت سمراء رشيقة الملامح فائرة الجسم ثائرة النهدين

خفيفة الحركة ، وتُماثل طاهر فى سنه على الأقل . لا يجهلها أحد من أهل العباسية تقريبا ، فهى تقيم مع أمها فى شقة بعمارة متوسطة العمر تطل على العباسية من ناحية وعلى القرافة من ناحية أخرى . وهى ممرضة تمارس مهنة إعطاء الحقن للمرضى عن طريق الصيدلية ويُقال إنها تعمل أيضا فى مستشفى . سيئة السمعة دون أى دليل ولكن هكذا يجرى الحال فى العباسية . فما دامت تعمل وتنتقل من بيت إلى بيت بخفة ووجه مليح وفستان ناطق فهى سيئة السمعة دون شك . طاهر يعترضها بجسمه المائل للبدانة ونظراته الحالمة ، ومن ذا الذى لا يعرف طاهر بن عبيد الأرملاوى باشا ؟ . إنه ينظر ويبتسم وهى تعرض عنه دون غضب . وتستمر المطاردة ويلوح الأمل . هكذا يصبح فى مجلسنا عاشقان ، وتتجلى فى أحوالهما أعراض السحر والنشوة . وقال له حمادة الحلوانى :

ــ رئيفة تحتاج إلى مكان آمن .. أعنى شقة خاصة مثلا !

فقال إسماعيل قدرى صاحب الخبرة :

ــ هى أدرى بما تحتاج إليه ، ولكن يلزمك مصروف إضافى ..

فقال طاهر باستياء :

ــ كأنكما تحدثان عن مومس !

فلاذا بالصمت فى دهشة ، وقال صادق صفوان معتذرا عنهما :

ــ لا تؤاخذهما فأنت تعرف ما يقال ..

فقال طاهر بوضوح :

ــ كلام فارغ ، أنا أحب رئيفة كما تحب أنت إحسان ..

وألزم قوله كل أحد حده رغم وساوسة الباطنة ، ورجع يقول :

ــ أقبلت عليها بادئ الأمر بنية سيئة ، تبعتها من بيت إلى بيت دون جدوى ، وتبين لى أنها فتاة عاملة ؛ فهى إما تمارس عملا أو ترجع إلى بيتها ، الناس ألسنتهم

لا ترحم ، وتقذف بالتهم بلا دليل ، والحق أنها لما ابتسمت لى غزانى شعور جديد فأدركت أننى أحبها ..

وتم التعارف وتواعدا للقاء فى حديقة بيبرس ، وقالت له :

— الحرص واجب ، وأنا أخدم الأسر الكريمة ، وألسنة الناس رديئة ..

ربما تصور بعضنا أنها فتاة ماكرة وأنه شاعر طيب وابن ناس لا خبرة له بمكر الحوارى . وتحدانا طاهر قائلا :

— هاتوا لى دليلا واحدا ..

حقا لم يضبطها أحدنا مع شخص فى شارع خال ولا سمع عنها واقعة محددة ، وتمنينا لصديقنا السلامة . وتبادلا هدايا رمزية وقال لنا وهو ثمل بنشوته :

— إنى ماض معها إلى النهاية المشروعة !

ثم بعد صمت :

— وهى تعرف أسرتى وتقدر ظروفى ولكنها سألتنى فى شىء من الحذر : هل تستطيع أن تقف أمام إرادتهم ؟ فأكدتُ لها أننى أستطيع كل شىء ..

ويحق لنا أن نذهل لهذا التحول الكبير . وقال له حمادة الحلوانى :

— إنك ما زلت فى السادسة عشرة ..

فقال ببساطة :

— للزواج وقته المناسب ..

فقال صادق :

— الوقت المناسب بالنسبة لها مختلف ..

فقال ضاحكا :

— الحب لا يعترف بذلك ..

وسأله إسماعيل قدرى :

ـــ هل تفهمك كشاعر ؟

ـــ على الأقل لا تسيء فهمى ، ويعجبنى فيها بصفة خاصة قوة شخصيتها .

فقال حمادة :

ـــ قد تفصل من شجرة الأسرة بسببها ؟

ـــ لا يهمنى ذلك .

وسأله صادق مداعبا :

ـــ هل عرفت الآن الحب ؟

فقال ضاحكا :

ـــ لعله جنون أو مرض ، ولكنه على أى حال يمثل السعادة فى ذروتها ..

ـــ ومارى بكفورد ؟ .. وزائرات الحديقة ؟

فقهقه قائلا :

ـــ هذه فاتحات شهية ..

فتساءل إسماعيل قدرى باهتمام :

ـــ هل يختلف عن الجنس ؟

ـــ إنه شجرة ملائكية نواتها الجنس ..

وهنا اعترف لنا صادق قائلا :

ـــ لقد سألت والدتى أن تقرأ الفاتحة مع ست فاطمة أم إحسان ، وتفكر والدى طويلا ولكنه لم يعترض ..

ووقع حمادة الحلوانى فى شرَك الحب وهو يناقش المحبين . علمنا أنه شغف بسميرة المعروقى ، وقال لنا :

ـــ فيها جميع المواصفات المطلوبة ..

وسميرة بنت ستة عشر أيضا ، من الطبقة الوسطى ، وعرف عنها أنها تزور

الجيران سافرة الوجه وحدها فاعتُبرت متفرنجة . وكانت تفعل ذلك بموافقة الوالدين ورغم اعتراض ابن عم لها غيرةً على سمعة الأسرة . وطبعا حمادة معروف كتنجل يسرى باشا الحلوانى الثرى الكبير والبطل الوطنى . وعن طريق خادمتها دعاها إلى لقاء فى شارع السرايات الذى يخلو مساء للعشاق .

من بدء الحكاية شعرنا بأن حمادة يخوض مغامرة فريدة ولكنها لم تمتحن بالحب الحقيقى الذى اقتحم قلبَى صادق وطاهر . على أى حال تلاقَيا فى شارع الحب ولكن التجربة أجهضت قبل أن تبدأ . ما كادا يسيرانِ دقائق معدودة حتى انقض عليهما ابنُ عم الفتاة كالوحش الكاسر . لطم الفتاة على خدها ففقدت توازنها وتهاوت فوق الطوار ، ثم انهال على صاحبنا باللكمات حتى أدركهما شرطى الدرك . وذاعت الفضيحة من فم إلى فم ككرة القدم ، وغضب يسرى باشا غضبا شديدا وقال لابنه :

ــ يعتدى عليك وأقف مكتوف اليدين لأننا نحن المعتدون ، ألا تدرى كيف تكون المعاملة مع بنات الناس ؟ ومَن هو المعروق هذا ؟ .. يا لك من طفل مخيب للآمال ..

ونال صاحبنا من المعركة كدمات فى الخد والشفة فاضطر إلى الاعتكاف أياما فى السراى ، ولما رجع إلينا لم نتمالك أنفسنا من الضحك . وسأله طاهر باهتمام :

ــ ماذا أنت فاعل ؟

فأجاب ببرود :

ــ لا شىء ..

ــ ألا تحبها ؟

فقال ضاحكا :

ــ تلاشى كل شىء فى المعركة ..

ــ ألم تتبادلا أى كلام ؟

ــ مجرد التعارف والإعجاب ثم كان ما كان ..

ــ لعلها تنتظر خطوة جديدة من ناحيتك ؟

ــ لن يحدث أى جديد ..

فقال صادق :

ــ المسألة أنك لم تحب ..

فهز منكبيه قائلا :

ــ ربما ..

ولم يغير إسماعيل قدرى من سيرته ، ويقول ببساطة :

ــ الجنس شىء عظيم ومفهوم وهو مكتفٍ بذاته ..

فيقول طاهر :

ــ رأى عجيب لإنسان له ثقافتك وعقلك ..

فيقول بترو :

ــ الجنس يضعك فى صميم الوجود ولا وزن عندى لما يقول المنفلوطى .. لعله شغل عن الحب أو لم يخلق له .

* * *

وفى غمرة الهموم الخاصة الممتعة خفق فؤاد الوطن خفقة أليمة عميقة بموت الزعيم سعد زغلول . شدَّ ما ذهلنا واشتعلت جوانحنا بنار الحزن والحسرات . حتى طاهر عبيد وجم وأسف بعد أن أظلت زعامة الراحل الجميع فى الائتلاف الوطنى وأحبه الخصوم مع المريدين والأتباع . وكل منا له حكاية عن الخبر فى أسرته وما أسال من دموع . كل عين بكت سعد وكل قلب امتلأ بالشجن . وسأل صادق طاهر عبيد :

ـــ كيف تلقى عبيد باشا وإنصاف هانم الخبر ؟

فأجاب :

ـــ بالحزن طبعا ، وقال أبى إنه فى أعوامه الأخيرة كفَّر عن ماضيه كله وأصبح أباً للشعب والوطنية ..

وذهبت جماعتنا إلى ميدان الأوبرا وانحشرنا فى الجموع الحزينة الواجمة ننتظر ، وعندما لاح النعش فوق المدفع ارتفعت صرخات الأسى إلى سماء أغسطس الصافية التى تقطر حرارة ورطوبة . وجرفنا التيار وراء الجنازة إلى شارع محمد على ، وهناك اختلطت الهتافات بصوات المطلات من النوافذ والشرفات . ورجعنا إلى العباسية صامتين بلا سعد . ونخوض أمواجا جديدة من تاريخنا المفعم بالحرارة والقلق ، فنبايع خليفة سعد ونرقب ما يلوح فى السماء من نذُر وبشائر .

وفى عام البكالوريا ضاعفنا الهمة تطلعا للنجاح . واجتهد إسماعيل قدرى مستهدفا التفوق ليلتحق بالحقوق بالمجان ، ولكن سوء الحظ اعترض سبيله المرسوم بتدبير ماكر . ففى ختام الثلث الأول من العام الدراسى لزم قدرى أفندى سليمان الفراش لمرض فى القلب . اختل نظام إسماعيل وشغل بأبيه ، وازدادت متاعب الأسرة بتكاليف الطبيب والأدوية . وحدثنا إسماعيل عن مرض أبيه بتأثر شديد ، عن هزاله ، وورم ساقيه ، وضعف الأمل فى شفائه . والحق أن قدرى أفندى لم يسترد صحته ، وأسلم الروح فى أواخر مارس قبل الامتحان بشهر تقريبا . وأساء مرضه وموته صديقنا إساءة لا تجبر . نجح فى البكالوريا وجاء ترتيبه دون المتوقع ودون ما يستحق ، وعجز معاش والده عن توفير المصروفات له ، وبالكاد وفى احتياجات الأسرة الضرورية . وسُئل عما ينوى فعله فأجاب بأسى :

ـــ لا توجد فرصة للمجانية إلا فى كلية الآداب ..

وشعرنا جميعا بأن همة عالية قد أهدرت عبثا . وقال له صادق مواسيا :

— لا تحزن ، ففى أى مجال فرصة للتفوق ..

فقال مستسلما :

— يا لها من ضربة قاضية ..

أما بقية الأصدقاء فقد التحق طاهر بكلية الطب بسعى أبيه وإصراره . وقال الباشا لابنه :

— نجاحك وحده ودون سعيى لا يؤهلك لكلية الطب ، ولكنك قادر على التفوق إذا عزمت ..

فقال له طاهر :

— ولكننى شاعر يا بابا ..

فقال الباشا بحدة :

— حتى مع التسليم بأنك معتل بهذه العاهة فلا يمنع ذلك من دراسة الطب ، أعرف أطباء مهووسين مثلك ولكنهم أطباء على أى حال ..

وسأله حمادة الحلوانى :

— ترى كيف تدرس الطب على رغمك ؟

فأجاب ضاحكا :

— دعنا من الطب وسيرته ، المهم أن مجلة الفكر ترحب بأشعارى ورئيس تحريرها يحتفى دائما على الإبداع ، والمعركة الفاصلة مع أبى آتية لا ريب فيها ..

ودخل حمادة الحلوانى كلية الحقوق بلا أدنى رغبة فيها ولا فى غيرها . قال :

— لأسكت أبى ليس إلا ، كف الآن عن إغرائى بالاهتمام بعمله وقنع بأخى توفيق كخليفة له ، وقد دخلت الحقوق لأوهمه بأننى صاحب هدف هام أيضا ..

قال له صادق :

— بوسعك أن تعمل فى النيابة والقضاء ..

فقال ضاحكا :

— هدفى أكبر من ذلك ، أنا عاشق الثقافة والحياة والحرية ..

— الحرية ؟!

— سمِّها مؤقتا البطالة إذا شئت ..

مع الزمن مضى حلمه يتبلور ويتجسد ، أن يعيش كالأعيان ، يقطف من كل بستان زهرة ، بالطول والعرض ، بالروح والجسد ، دون التزام أو ارتباط . وقال إسماعيل قدرى :

— إنه قادر على تحقيق حلمه ..

أما المفاجأة المثيرة حقا فاقتحمتنا من ناحية صادق صفوان . قال ووجهه الجميل يومض بالانشراح :

— معى قنبلة !

وانتظر ليخلق الجو المناسب ثم قال :

— سأفتح دكان خردوات !

هل جُن الشاب الوديع المتدين ؟ . ولكنها الحقيقة . صارح والديه بأنه قرر ألا يكمل تعليمه ، وأن يفتح دكان خردوات كخطوة أولى فى سبيل الثراء . انزعج صفوان أفندى النادى أيما انزعاج ولم يصدق ، وآمنت ست زهرانة كريم بأن عينا أصابت ابنها الوحيد . قال صفوان أفندى :

— أنت تمزح ولا شك ..

— بل جادٌّ كل الجد .

— إذن مسَّك جنون !

— لِمَ يا بابا ؟ . أنا عاقل وأعرف هدفى ..

ـــ لم أسمع عن متعلم قبْلك يفضّل أن يكون صاحب دكان عن أن يكون موظفا فى الحكومة ..

ـــ قارن بين أقل ربح متصوَّر لدكان وبين أى مرتب .

ـــ المال ليس كل شىء .. الجزار رجل غنى !

ـــ المال أهم شىء .

ـــ والكرامة ؟

ـــ العمل الشريف كرامة .

فصاح الرجل :

ـــ أفسدك التدليل ، هذه هى المسألة ، ومن أين لك الخبرة بهذا العمل ؟

فقال بهدوء وأدب ليلطف من انفعاله :

ـــ لنا أصحاب من كل لون ، منهم أبناء بقالين وأبناء خردواتية !

فسأله بحنق :

ـــ لا يكفى هذا ، ومن أين لك المال الذى تبدأ به ؟

ـــ توجد دكان بثلاثة جنيهات فى العمارة الجديدة التى شطبت حديثا على ناصية العباسية مع أبو خودة ، نينة تملك بعض الحلى القديمة ، وسوف أردها لها أضعافا ..

ـــ إليك رأيى ، أفكار أطفال ولعب عيال ..

وجاء الفرج من حيث لا يحتسب . ففى زيارة عائلية لسراى رأفت باشا الزين شكا صفوان أفندى ابنه للباشا فما أدهشه إلا أن هتف الباشا :

ـــ برافو !

فتساءل صفوان أفندى فى حيرة بالغة .

ـــ برافو يا باشا ؟

ـــ تفكير سليم ، الدنيا يجب أن تتغير ، أتعرف أنها ستكون دكان الخردوات الوحيد فى العباسية كلها ؟!

فباخ انفعال الرجل ، وتساءل فى تسليم :

ـــ أليس لكل مشروع تمويل يناسبه ؟

فقال الباشا :

ـــ هذا حق ، ويجب أن يكون مشروعا قويا ، سأقرضه بما يلزمه قرضا حسنا بلا فوائد وسوف أسدد خطاه ..

وفى الحال تلاشت معارضة صفوان أفندى وست زهرانة ، وضحكت زبيدة هانم وراحت تداعب الشاب قائلة :

ـــ مبارك عليك يا عم صادق !

وانقلب لعب العيال إلى جد ونحن لا نصدق . استؤجر الدكان ، وأمدَّ الباشا صاحبنا برجل من دائرته ، ينظم له الدكان ويتفق مع النجار المناسب ويمسك له دفاتره ويبصره بخفايا عمله ، على حين عرَّفه الباشا بتجار الجملة من معارفه وضمنه عندهم . وقبل نهاية الصيف وافتتاح الجامعة جال صادق فى دكانه مزهواً بين أرفف اصطفت فوقها المناديل والإشاربات والسجائر وأدوات الحلاقة والحياكة وصنوف الشيكولاطة والملبن واللب والسودانى . وكان علينا أن نتكيف مع الوضع الجديد وأن نوليه ما يستحق من جدية وإن بدا أول الأمر كاللعب أو التمثيل . نمر به ، نتبادل الابتسام ، نراه واقفا وراء الحاجز الخشبى ، أو ملبيا طلبا ، نرئ زبائنه من الغلمان والبنات والنساء ، وهو جاد تماما ، حتى شاربه تركه ينمو . ومن حسن الحظ أنه لم يتعملق كشارب أبيه ، ولكنه استقر فوق شفته العليا كشارب شارلى شابلن . وبعد إغلاق الدكان يلحق بنا فى قشتمر ، مهاجرا إلى دنيا الثقافة والسياسة . ويغبطه إسماعيل قدرى على كثرة

زبائنه من الجنس اللطيف فيعلق حمادة على ذلك بالمثل البلدى « يدّى الحلق للى بلا ودان » . ويسأل باهتمام عن الربح فيقول :

— إنى أسدد دَيْنى للباشا أولا ، ولكن يبقى لى ما لا يحلم به موظف شاب ..

وما لبث أن قذفنا بالقنبلة الثانية عندما قال ذات ليلة :

— سأشرع فى الزواج دون تأجيل ..

لم نعجب هذه المرة لما نعرفه من تدينه وعفته . ووضح لآذاننا اللاهية صوت الزمن الغائب فى زحمة الأحداث وتتابع الفصول ، فبعضنا يجلسون فى مدرجات الجامعة وأحدنا يتوثب لاستكمال دينه . وقرر صادق أن يعلن رغبته ثم يستمهل أسرته الجديدة حتى يقتصد قدرا مناسبا من المال . ويبدو أن إبراهيم أفندى الوالى لم يعجبه تحول الشاب من أفندى إلى خردواتى ، ولكن صفوان أفندى قال له بكبرياء :

— ابنى حاصل على البكالوريا ، ألا تقرأ ما يكتب المفكرون عن الأعمال الحرة ؟!..

وجاءت موافقة إحسان صادقة وحاسمة وقاطعة فأخذت كل أسرة من جانبها تستعد لليوم السعيد . وقال صفوان النادى لابنه :

— لِمَ العجلة ؟ . كان الأوفق أن تنتظر حتى تسدد ديْنك ، ثم تقتصد على مهل حتى تضمن لنفسك مسكنا مناسبا من جميع النواحى ، ولا تنس أن إبراهيم أفندى الوالى رجل على قد حاله والله لا يكلف نفسا إلا وسعها ..

ولكن صادق طمأن أباه إلى أن الأمور تسير سيرا حسنا . وعرفنا نحن سر العجلة أو سر اللهفة على اليوم الموعود . وقال حمادة ضاحكا :

— ستكون معركة حامية لا هوادة فيها وربنا يستر ..

واستأجر صادق شقة من ثلاث حجرات فى العمارة التى تتبعها دكانه ،

(قشتمر)

وباعت والدته حليها القديمة لتغطية المهر والشبكة . وعند ذاك قال رأفت باشا لصادق على مسمع من والديه :

ــ زبيدة اقترحت عليّ أن أتنزل لك عن باقى الدَّين ولكننى رفضت ، أريد أن تبنى نفسك بجهدك لا بعون أى مخلوق ..

ولكنه أهدى إليه أثاثا جميلا للصالة مكونا من كنبة وفوتيلين ، وطاقما من الصينى وأدوات المطبخ . وفرشت الشقة بأثاث بسيط ولكنه طبعا جديد وذو رائحة خاصة عشعشت طويلا فى حواس صادق .

وفى ليلة الدخلة جمعَنا سرادق صغير بشارع أبو خودة . جلسنا بين المدعوين فى صفوف متتابعة ، ولفت نظرنا صفوان أفندى بجسمه الضئيل وشاربه العملاق . وعلى المنصة أطل علينا عبد اللطيف البنا وتحته وغنى لنا أغنيته الخفيفة السافرة :

ارخى الستارة اللى فى ريحنا لحسن جيرانك تجرحنا

يا مبسوطين بالقوى يا احنا

ولاح صادق حائرا بين العمارة والسرادق ، يرحب بنا كثيرا ، يدارى بابتسامته المليحة حيرة جانحة . وقال لنا :

ــ سنتناول العشاء على مائدة خاصة .

فقال له حمادة الحلوانى :

ــ فى جيبى زجاجة خاصة هربتها معى .. كل شىء مباح الليلة .

وقال طاهر :

ــ نحن مسئولون عنك حتى صياح الديك .

ولم يشهد رأفت باشا السرادق ولكن صاحبنا أخبرنا بأنه زار الأسرة مهنئا وأن حرمه تتوسط مجتمع النساء كالبدر . وطالبنا العريس بأن نشهد الزفة معه ،

فجس لنا النبض ولكن خاب المسعى . ولم يقبل المسئولون وجود شبان أغراب بين المدعوات . ولما ذهب قال حمادة :

— ما له كأنه مضطرب أو خائف ..

فقال طاهر :

— المسألة فاصلة وخطيرة ولن تكون أحسن حالا منه ..

وتساءلنا متى يجيء يومنا ، وعلى أى حال يكون ، وماجت أنفسنا بالسرور وحب الاستطلاع . وفى عودتنا إلى بيوتنا تخيلنا صديقنا فى خلوته المسربلة باللهفة والارتباك التى طال انتظاره لها مذ ناهز الحلُم .

وغاب عنا أسبوعا كاملا ، ولدى أول لقاء فى قشتمر انهمرت عليه الأسئلة فى حصار يتقد بالرغبات المكتومة حتى اضطر إلى الاعتراف قائلا :

— لم أذق إلا كأسا واحدة ولكنها كانت كافية ، بل فوق الكفاية ، وما أن أغلق الباب علينا حتى شعرت بأننى تحررت من أثقال الحياء والتقاليد وأشباح الزواجر والنواهى ، وكان علىّ أن أحررها من تاج الفل المطوق لرأسها ، وضممتها إلى صدرى ، ولذة الوجود تفر فى حومة ارتباك غريب وجَيَشان رأس لم يصمد أمام نفثة الكأس الحامية ، اعترفت لها بأن رأسى دائر فسمحت لى بالاستلقاء للراحة ، وفعلت فتقضّى الليل وأنا بين اليقظة والنوم ، ثم انتبهتُ وانتبهتْ حواسى فأيقظتها بقبلاتى ، ثم ... ، ماذا أقول ؟ . أخوكم سبع !

وضحك فى سعادة بادية مؤثرة وقال :

— كلانا شعلة لا تخمد !

إنه مكبوت ملهوف ذو شوق قديم ، وهى خفيفة وتعلن خفتها عن فائض من الحيوية ، فهو شهر عسل مفعم بالعسل . ورجع إلى دكانه بعد عطلة امتدت ثلاثة أيام . وباشر عمله بمفرده بعد أن أتم مندوب رأفت باشا مهمته فى تدريبه .

وأصبح الدكان ملتقى الذاهب والجائى ، فهو دكان الخردوات الوحيد وهو ضربة معلم . وخلو العباسية من الدكاكين يرجع إلى كون مساكنها على الجانبين خاصة ، سرايات فى الشرق وبيوتا فى الغرب ، ولا توجد الدكاكين إلا بهدم بيت وإقامة عمارة فى موضعه . وانهمك صادق بكليته فى الحب والتجارة ، أما السياسة والثقافة فتراجعتا إلى هامش حياته . قال له حمادة الحلوانى :

ـــ حياتك الراهنة لا تتسع للقراءة ..

فقال صادق آسفا :

ـــ الجريدة على الأكثر ، وقد أقرأ مقالا فى المجلة ..

أما الوطن فقد تردى فى أحداث مباغتة . تصدع الائتلاف وألّف محمد محمود الوزارة ، فأوقف الدستور ، وقام الصراع بين الوفد بزعامة النحاس من ناحية وبين الملك ومحمد محمود والإنجليز من ناحية أخرى . وكان إسماعيل قدرى أشد الجميع انفعالا . هكذا هو متطرف دائما فى السياسة والثقافة والجنس . حمادة دونه فى الانفعال والحماس بما لا يقاس رغم أن الباشا والده من أساطين الصراع الدائر . واشترك إسماعيل فى كل مظاهرة طلابية ، على حين اكتفى صادق بإعلان امتعاضه ، ولم يشترك حمادة فى المظاهرات خارج أسوار الجامعة .. كأنما كان يترفع عن الاندماج فى الجماهير . ولبث طاهر فى موقف شبه حيادى . لم يعد يعلن تأييده لموقف أسرته ولكنه لم ينضم للجانب الآخر . وقال لنا يوما :

ـــ فليحل القضية من يحلها ، إن لم يكن مصطفى النحاس فليكن محمد محمود ..

ومرة أخرى أعلن ملاحظة لم نلتفت إليها من قبل ، قال :

ـــ ألا ترون معى أن الوفد تقدمى فى السياسة ورجعى فى الفكر ، وأن الأحرار رجعيون فى السياسة وتقدميون فى الفكر ؟!

والحق أننا فى الثقافة لم نكن نفرق بين وفدى ودستورى ، ولا نتأثر بعواطفنا السياسية فى تقدير من يستحق التقدير من خصومنا ، بل ألم نفتن بكتّاب أعدائنا أنفسهم من الإنجليز ؟!

وبقدر ما تحظى به حياتهم الثقافية الحرة من ازدهار وتقدم وجرأة فإن دراستهم الجامعية تعثرت فى الفتور المنذر بالفشل . حمادة يتلقى محاضراته القانونية فى برود ولا مبالاة . إسماعيل قدرى يعتبر نفسه منفيا فى كلية الآداب ليحصل على شهادة لا يحبها ليشترى بها وظيفة يمقتها . ويواسيه صادق فيقول له مشجعا :

— بوسعك أن تكون أستاذا كبيرا .

فيقول :

— إذا حيل بين إنسان وهدفه فقد قضى عليه بالموت ..

أما طاهر فثابر على نشر شِعره الجميل ، وثبت أقدامه فى مجلة الفكر ، ومضى يترجم لها مختارات من الفرنسية ، وهى من ناحيتها نفحته بمكافآت مالية سعد بها سعادة غير محدودة وأنفق بعضها علينا فى صورة حلوى ممتازة من جروبى ، وأنذرناه بمعركة قادمة مع والديه ، فقال ضاحكا :

— لتكن معركة ..

فقال له صادق :

— اجبُر بخاطرهم وانجح ثم افعل بنفسك ما تشاء بعد ذلك .

فأجاب بإصرار :

— لا أحب العبودية ..

وفى ختام العام الدراسى نجح حمادة وإسماعيل وسقط طاهر سقوطا شاملا . انفجرت أزمة حقيقية فى فيللا الأرملاوى . وخمد أملهم فى ولى العهد . وجلس أمام عبيد باشا وإنصاف هانم فى قفص الاتهام متهَماً . قال الباشا بحزن عميق :

— هذه نتيجة شخص آخر على وجه اليقين !

وقالت إنصاف هانم :

— مسئوليتك ثقيلة على قدر ذكائك ، وأنت مطالب بالتفسير ؟

طفح قلبه بالأسى ولكنه كان أكبر من أن يفرط فى روحه فقال :

— دخلت الطب مرغما ، هذا هو التفسير .

فسأله أبوه وهو فى غاية التجهم :

— لم تعد طفلا ، فماذا تريد ؟

— مستقبلى فى الشعر والصحافة .

فهتف الرجل :

— خبر أسود ..

— المسألة غاية فى البساطة يا بابا .

— تصورك هذا لها يجعل منها مصيبة أخرى .

وتأوهت الهانم وهى تسند رأسها إلى يدها قائلة :

— أى خيبة أمل !

فقال بهدوء :

— أنا آسف جدا ، ولكن لا حيلة لى ..

وبعد أن فرغ من روايته لخص لنا الموقف قائلا :

— الفيللا فى مأتم وأنا فى غاية الكدر .

فسأله صادق :

— ألا تراجع نفسك ؟

فقال باسما :

— سألتحق قريبا جدا بالمجلة كشاعر ومترجم ، سيكون لى مرتب ثابت ،

أصدقائى هناك يقدروننى جدا ..

وقال إسماعيل قدرى :

— إنى أؤيدك ..

وقال حمادة :

— أحيانا يثبت الآباء أنهم فى حاجة إلى تربية جديدة .

فقال له طاهر :

— أبوك بخلاف أبى ، لين العريكة ..

فقال حمادة بضيق :

— احتقارهم يطاردنى ..

وألحق طاهر بمجلة الفكر . وكانت علاقته برئيفة تنمو وتشتد ، بل لعلها لم تعد سرا ، فليس فى العباسية أسرار . ويوما قال لنا :

— لا مبرر للتأخير ، وعلىّ أن أفعل ما فعله صادق صفوان ..

وهمس صادق :

— الباشا لم يسترد أنفاسه بعد ؟!

فقال استهانة :

— لا بد مما ليس منه بد .

وتضاربت الأقوال فى قشتمر . اقترح حمادة أن يتم الزواج سرا حتى يعرف فى وقت مناسب . ونصح إسماعيل بأن يتم الزواج كأمر واقع ثم يبلغه طاهر أباه برسالة تحرر فى اجتماعنا . ولكن طاهر قال بحزم :

— لا .. أريد أن أواجه التحديات بنفسى ..

ثم وهو يغرق فى الضحك :

— ولتفعل بنا القوة ما تشاء .

فى تلك الأيام المغرقة فى الانفعال تلقي إسماعيل قدرى الضربة القاضية الأخيرة . قاد مظاهرة فى الحرم الجامعى فقُبض عليه خارج أسوار الجامعة ، وسرعان ما تقرر رفته نهائيا من الجامعة . هوى صديقنا مثيرا فينا عاصفة من الحزن والأسف . موت أبيه غيَّر مجرى حياته وبدد آماله وها هو الجهاد يقضى على البقية الباقية . إنه وأمه يعيشان على معاش صغير ولا بد من احتواء المصيبة بحل سريع . وتبادلنا الآراء فى مجلسنا فقال صادق صفوان :

ـــ لا بد من وظيفة بالبكالوريا أما المستقبل فبيد الله وحده .

فقال طاهر عبيد :

ـــ لدينا أناس كبار يستشفع بهم عند الحاجة مثل يسرى باشا ورأفت باشا ..

فقال حمادة :

ـــ أبى وفدى والرياح تهب اليوم ضد الوفد ..

فقال صادق :

ـــ رأفت باشا من خصوم الوفد ولكنه لا يخيب الرجاء ..

وأبدى صادق مروءة محمودة فاصطحب إسماعيل إلى سراى رأفت باشا ، وعرض عليه المشكلة من البداية إلى النهاية . ونظر الباشا إلى إسماعيل وقال كالعاتب :

ـــ إذن فأنت وفدى ..

فقال صادق باسما :

ـــ مثلى يا سعادة الباشا ..

ووعدهما خيرا ، وأنجز الرجل ما وعد ، وألحق إسماعيل قدرى بوظيفة كتابية بدار الكتب . هكذا انتهى الصديق الطامح للزعامة والقانون . وقال له حمادة معزيا :

— دار الكتب تناسب عشاق الثقافة .

وقال له صادق :

— وسوف يرجع الوفد إلى الحكم يوما ما ..

فقال إسماعيل بفتور :

— لا يعرفنى أحد من القادة ..

ثم بصوت خافت :

— لم يبق لى فى الحياة إلا الثقافة ..

وأراد حمادة أن يسرِّى عنه فقال :

— وغابة التين الشوكى ..

وفى تلك الأثناء اختفى من مجال صحبتنا الأقران الآخرون ، واقتصر المجلس على خمستنا . أصبحنا من معالم المقهى . وفى العطلة الصيفية لا نتخلف عنه ليلة واحدة . ووقعنا فى هوى النارجيلة وثملنا بنشوة الدخان . ونوّعنا سهراتنا مساء كل خميس فأضفنا إلى السينما المسرح والصالة ، وزودنا عشاءنا بالخمر أحيانا ، بل عرف حمادة لف سيجارة الحشيش . وظل قشتمر أحب الأماكن إلينا بما هو المأوى الذى نخلو فيه إلى أنفسنا ونتبادل عواطف المودة . وقد بدأ منا ثلاثة — صادق وإسماعيل وطاهر — حياتهم العملية ، أما حمادة فواصل حياته الجامعية الفاترة . وبدا صادق أسعدنا فقد حقق حلمه فى الحب والعمل . وكم يسعده التنويه بنعمة ربنا عليه فهو يقول لدى كل مناسبة :

— الزواج نعمة الله الكبرى على عبده .

وفى الوقت المناسب أيضا بشرنا قائلا :

— دخلنا فى متاعب الوحم السارة !

وأنبأ وجهه الصافى فى الأيام التالية عن قلق طارئ كالماء الرائق الذى لا يخفى

سرائره ، أهو الوحم يا ترى ؟ . وصارحنا بهمه قائلا :

ــ حبها النهم توقف فجأة !

واستحوذت علينا حيرة بالغة حتى قال :

ــ أخبرنى نفر من أهلها أن تلك حال عارضة وعابرة وأن لا داعى للقلق ..

وعند ذاك قال له حمادة :

ــ نحن قوم لا علم لنا بهذه التجارب ، فاسعد وحدك واقلق وحدك ..

وإذا بطاهر يقتحم قلوبنا بحكايته . جاءنا ليلة مخطوف اللون ليقول لنا :

ــ وقعت الواقعة !

عرفنا بداهة ما يعنى وتطلعنا إليه فى إشفاق فقال :

ــ أعلنت الحرب .

لم يكن بقى بينه وبين والديه إلا الصمت . حتى شقيقتاه اللتان تزوجتا من دبلوماسيين بعثتا إليه برسالتين يحثانه فيها على إرضاء أبيه . وتكمن أزمته الحقيقية فى حبه والديه مع حرصه الكامل على استقلاله . ولم يعد يحتمل التأجيل ولا يقبل بالهرب ، فمضى إليهما فى الشرفة المطلة على الحديقة فى الأصيل . وبدون مقدمات قال بصراحته المعهودة :

ــ إنى أفكر جادا فى الزواج ..

لم يظهر أى رد فعل كما توقع ، غاية ما فى الأمر أن الباشا تساءل متهكما :

ــ هل توجد فتاة محترمة ترضى بفتى فى وضعك ؟

فقال بهدوء :

ــ وجدتها وهى جد راضية .

وانفلت الباشا من بروده فقال بانفعال شديد :

ــ إذن هو حق ما سمعت وأبيتُ تصديقه ؟

وسألته الهانم بمرارة شديدة :

ــ ماذا تقول ؟

فقال بهدوء :

ــ لا أدرى شيئا عما سمعتم ولكنها رئيفة حمزة !

ــ البنت الممرضة !

وصاح الأب :

ــ البنت صاحبة السمعة ...

فقاطعه طاهر واقفا :

ــ بابا ، من فضلك ..

فصاح الباشا :

ــ ثمة قوة مجهولة تريد أن تنتقم منى وتنكل بسمعتى ..

وهمست الهانم :

ــ يا للخسارة يا طاهر ..

ورجع الأب يقول :

ــ حذار .. حذار أن تقترب هذه البنت من بيتنا ..

فقال طاهر بأسى :

ــ أمرك مطاع ..

تابعناه متأثرين فابتسم ابتسامة لا معنى لها وقال :

ــ وحملت أشيائى وذهبت ..

فسأل صادق :

ــ هل تركوك بلا مقاومة ..

فقال ساخرا :

— إنى أعيش مؤقتا فى البيت الصيفى بسراى الحلوانى ..

— وبعد ذلك ؟

— اتفقت مع رئيفة على الإقامة فى شقتهم بعد القران فترة من الزمن ..

يا لها من رحلة طويلة حقا يقطعها العاشق من بيت السرايات إلى شقة صغيرة متقشفة يطل جانب منها على القرافة . وبدا لنا صديقنا كأنه مغامر لا يبالى بما يصادفه . اختار حياته بجرأة غريبة وقطع ما بينه وبين أسرته المجيدة بوثبة جنونية . ودار نقاشنا حول الخطوات التنفيذية ، واتفق الرأى أخيرا على أن يكتب الكتاب فى مسكن صادق صفوان ونحتفل بعد ذلك بالعروسين فى كازينو العائلات بالظاهر . والحق أننا نستطيع أن نفرح فى أى مكان . وأخليت حجرة فى شقة رئيفة ففرشت بحجرة نوم جديدة اشتُرِيَت من تاجر أثاث بشارع الشرفا ، بالإضافة إلى حجرة نوم أم رئيفة ، أما الحجرة الثالثة فجعلت للمعيشة والسفرة . وكان الجو خريفا معتدلا فجمعتنا مائدة خاصة للشراب والعشاء . وتبدت رئيفة رائقة سعيدة ، ولم تشهد أمها الحفل لكبر السن أو لعدم الاستعداد . وشربنا وأكلنا وضحكنا ، ومضى ركبنا بعد ذلك فى تاكسيين إلى عمارة العروس .

تزوج طاهر فى العشرين من عمره ، كذلك كانت رئيفة فى العشرين ، وإن خمن إسماعيل أنها أكبر من ذلك . ولدى عودتنا إلى بيوتنا تبادلنا حديثا ذا شجون . قال صادق :

— الحياة لعبة بيد الحظ فلندعُ له بالسعادة ..

فقال حمادة :

— أنا معجب بشجاعته ، إنه شخص غير عادى ..

فقال إسماعيل قدرى :

— أرجو ألا يندم أبدا ..

فتساءل صادق :

ــ هل يطيق حياته الجديدة وهو ربيب النعمة والترف ؟!

فقال حمادة ضاحكا :

ــ هى لدرجة ما مغامرة سينمائية..

على أى حال انضم طاهر إلى حزب الاستقرار والسعادة ، وعرفنا عن طريق صادق وطاهر حبا واقعيا رشيدا ، لا كالحب الذى نشهده أحيانا فى السينما ، ولا كالحب الذى حدثنا عنه المنفلوطى . وبفضل ذلك صار منا عضوان منتجان ، أحدهما تاجر والآخر شاعر ، وعما قريب يصيران والدين ، وهو خير من الإبحار فى محيط الثقافة شمالا وجنوبا دون ثمرة أو التمادى فى تشريح السياسة المصرية دون عمل . ولم نكن نتصور أن ينتهى إسماعيل قدرى إلى حياة الوظيفة الخاملة ، وسأله طاهر محرضا :

ــ لماذا لا تشق سبيلك إلى الكتابة ؟!

فقال بفتور :

ــ لم يجر لى ذلك فى حلم ..

كلا ، لم نتصور أن يقنع بالهزيمة ويستسلم لمخدر الروتين . وآى ذلك أن حماسه السياسى لم يهن إن لم يكن اشتد . ولم يبق فينا مَن هو مجرد علامة استفهام إلا حمادة ذلك الرحالة بين الأفكار والمذاهب الذى لا يستقر على حال أكثر من أيام ، حتى اعتاد طاهر أن يداعبه عند اللقاء متسائلا :

ــ من تكون اليوم ؟!

ويواصل ركن قشتمر سمره ما بين الأصالة والمعاصرة منبهرا بكل جديد فى الفكر أو العلم متطلعا إلى حكم صالح ينعم فيه بالاستقلال والديموقراطية . وتابعنا باهتمام حار صادق جهاد الوفد فى مكافحة الدكتاتورية ، أما صادق فكان يحسب

الأيام فى جريانها منتظرا الوليد الذى يجود به القدر . وكانت ولادة إحسان غير يسيرة فاضطر إلى استدعاء طبيب لمعاونة الداية ، وتلقى بعد العناء من ربه وليده الأول الذى أسماه إبراهيم تيمنا باسم أبى الأنبياء . وفرح به صادق فرحتين ، فرحة بمجيئه ، وفرحة بتوقع عوده أمه إلى طبيعتها الأولى . وبالمناسبة قال طاهر :

ـــ لا أحب فكرة الإنجاب .

فسأله صادق الذى أصبح ذا تجربة :

ـــ ورئيفة ؟

ـــ طبعا العكس ..

ـــ عظيم ، سوف تنجب عاجلا أو آجلا ..

فقال باستسلام :

ـــ بل أخشى أن يكون ذلك قد تم !

فقال صادق بأسلوبه الوعظى :

ـــ هذا حقها فلا تأسف ..

كان بعضنا يخاف على طاهر ردة الفعل بعد أن يخبو لهيب رغبته . الحق أنه ، استمر فى حبه فدل على أنه أحب حبا صادقا ، وهضم مقامه الجديد بيسر ومرح ، وازداد حماسا فى عمله وإنتاجه ونجاحه وكأنه لم يخلق إلا لذاك . ومع أنه ابن ذوات كحمادة ، إلا أنه كان ذا استعداد شعبى فطرى ، حتى منظره اختلف فى ذلك عن أبيه وشقيقتيه بالإضافة إلى العادات والسلوك التى اكتسبها من صحبتنا وانغمس فيها حتى قمة رأسه . وفى أول عهده بالزواج أراد أن تنقطع رئيفة عن عملها وتستقر فى بيتها فلم تمانع وقالت له :

ـــ أنا على أتم الاستعداد ولكن ألا يزيد ذلك من أعبائك ؟!

ففكر وحسَبَ ثم قرر أن يتركها فى عملها الذى كانت تربح منه أضعاف

مرتبه ، وقال لنا بحرارة :

ــ إنها على خلق وجديرة بكل ثقة .

وعجبنا فى أنفسنا لما ذاع عنها قديما من غير أى دليل . وأهدى إلينا الزمن المتجهم بسمة بسقوط الحكم الدكتاتورى ، ولكن حكم الوفد مضى فى غمضة عين عقب فشل المفاوضات فلم يدم أكثر من إشراقة شمس عابرة فى يوم غائم طويل ، وخلَفه فى الحكم إسماعيل صدقى مفتتحا عصرا داميا من التعسف والإرهاب . وماجت البلاد بالمظاهرات وأنّت من كثرة الضحايا ، وجعل إسماعيل قدرى يرقب المعارك فى ميدان باب الخلق من نافذة حجرته بدار الكتب وهو يتعجب كيف قضى عليه بأن يكون موظفا ويحال بينه وبين الاشتراك فى المظاهرات . وأظلت جماعتنا سحابة قلق لاعتكاف يسرى باشا الحلوانى فى سراياه مريضا ، وما أعقب ذلك من إجراء جراحة له فى البروستاتا . وما لبث أن تُوفّى الباشا فى المستشفى الفرنسى على مبعدة يسيرة من سراياه . فقدت العباسية بموته أهم شخصية اقتصادية ووطنية بين أبنائها ، كما خسر الوفد أحد مجاهديه الأوائل . وشيعت جنازته فى موكب عظيم تقدمه أعضاء الوفد وعلى رأسهم مصطفى النحاس . ورغم فتور العلاقة بين الأب الراحل وصديقنا حمادة إلا أن الحزن استغرق الفتى فى يوم الفراق ، وبكى فى المدفن بكاء صادقا كأخيه توفيق . ولكن الأمر الذى لا شك فيه أنه شعر بالتحرر والاستقلال وأنه سعد بذلك الشعور . وترك الإدارة لشقيقه ، واهتم بفرز ميراثه من الأموال السائلة والعقارات ، وصادف ذلك أن بلغ سن الرشد قبل الوفاة بأسابيع . ووضح لنا جميعا أن صديقنا أصبح من الأغنياء بكل معنى الكلمة . ونصحه صادق قائلا :

ــ حافظ على حسن العلاقة مع أخيك تفاديا من وجع الدماغ .

فقال موافقا :

ــ أوافق تماما ، ولكى أحصل على نصيبى السنوى من أرباح المصنع دون متاعب ..

وقال له إسماعيل قدرى :

ــ وعليك أن تتم دراستك القانونية ..

فتساءل بسخرية :

ــ وما وجه الحكمة فى ذلك ؟

ــ على الأقل حتى لا يهدر تعب مرحلة طويلة من الحياة !

فقال باستهانة :

ــ كلام فارغ ..

ولم يتردد فهجر كلية الحقوق غير آسف وغير مكترث لرجاء والدته . ودعاه التحرر إلى تحقيق أحلام ألحت على رأسه منذ قديم فاستأجر شقة فى خان الخليلى وأثثها على الطريقة الشرقية ، كما أعد لنفسه ناديا خاصا فى عوامة بشارع الجبلاية ، وقال لنا بسرور :

ــ كى يتسع أمامكم مجال التسلية ..

جاء الوقت ليشبع شغفه بالحياة العريضة ، حسية وعقلية ، فى رحلته الطويلة المتحررة من أى التزام . وكما يأبى الانتماء لرأى فهو يرفض الارتباط بعمل . بل لم يتأثر تأثرنا بزواج صادق وطاهر ، فقد هيج الزواج حنيننا إلى الحياة الزوجية ، أما هو فلم يتزعزع أنملة عن موقفه . وتردد نهاره بين خان الخليلى وشارع الجبلاية ، يقرأ ، يستمع إلى الأسطوانات ، يشرب القليل من الخمر وعشق الحشيش ، ثم لابد أن يختم يومه بجلسة ساعتين على الأقل فى قشتمر ، وقال لنا بوضوح :

ــ غاية الإنسان من كل سعى أن يبلغ الحياة التى أستمتع بها اليوم .

وقال طاهر عبيد :

ـــ عرف صديقنا ما يناسبه ..

فقال صادق بارتياب :

ـــ انتظر ، قد ينقلب كل شيء رأسا على عقب !

وها هو إسماعيل قدرى يمارس حياته وكأنما قد استنام إليها بصورة نهائية ، موظف صغير أبدى ، فى بيت محدود الرزق بلا مستقبل ، رأسه يتضخم بالاطلاع والتفكير ، وقلبه قلق بالشك الذى اجتاحه ، ومسراته الحسية متدنية وتعيسة . لماذا لا يلقى الصعاب بالتحدى المناسب لقدراته ؟ . لماذا لا يحاول الكتابة ؟ . لماذا لا يدرس القانون من الخارج ؟ . لماذا يستسلم للهزيمة ؟ . وأين تلاشت همته العالية ؟! . وكأنه لم يبق له من المتع الطيبة الدنيوية إلا أكلة فاخرة وكأسان من الويسكى فى العوامة أو خان الخليلى . ولكنه لم يفقد يقظته العقلية المتألقة . ولما جاء حمادة ببعض الخواجات يستعين بهم على تذوق الفن التشكيلى والموسيقى الغربية تجلى إسماعيل على رأس المتذوقين ، وربما فتر حماس حمادة أحيانا أما حماسه هو فقد استمر . واهتمامه مع ذلك بالفن والأدب والفلسفة لا يقاس باهتمامه بالسياسة ورؤاها ، وفى ذلك الميدان يعد معلمنا الأول ، ووضح ميله للديمقراطية ، وإن قال بإيمان :

ـــ لا ديمقراطية بلا عدالة اجتماعية ..

ويظل فى ظاهره على الأقل موظفا صغيرا ، يثابر على استعارة الكتب ، والتعلق بالوفد ، والسمر فى قشتمر ، ومعاشرة الأسى وهو ما لا يلاحظه إلا من يستشف أعماق عينيه .

طاهر عبيد ـــ رغم منفاه الاختيارى ـــ أسعدنا فيما يبدو . بحسبه أن شِعره يعتبر اليوم أجمل ما ينشر من شعر ، أو فى الأقل أجمل ما ينشر من شعر فى مجلة

(قشتمر)

الفكر ذائعة الصيت . وها نحن نلمح رئيفة فى ذهابها وإيابها مرتدية فساتينها الفضفاضة لتدارى حبلها . وفى الوقت المناسب أنجبت للشاعر درية . وثمل طاهر بالأبوة كما ثمل بها صادق من قبل ، وتساءلنا ؛ ترى هل علم عبيد باشا الأرملاوى وإنصاف هانم القللى بمقدم حفيدتهما ؟ . الواقع يقطع بأن صديقنا قد انفصل عن أسرته إلى الأبد . ووجه الباشا المتعجرف لا يعد بأى أمل فى التراجع ، والهانم لا تقِل عنه ترفعا واغترابا . ولم يتصور أحدنا أن تقف الهانم موقف الند من أم رئيفة العجوز ، والمسألة تبدو حلما من الأحلام أو أسطورة نسجها قلب شاعر متمرد عذب . يسأله حمادة أحيانا متذكرا حبه القديم لوالديه :

ــ ألا تحن أحيانا إلى بين السرايات ؟

فيتفكر مليا ثم يقول مداريا أشجانه بالابتسام :

ــ اهجر من يهجرك ..

ويقول عن درية بفخار :

ــ جميلة حقا وصدقا .. اقتبست أجمل ما فى ماما ورئيفة ..

فقال له صادق ضاحكا :

ــ وإذا قدر الله أن تقتبس منك بدانتك أيضا أصبحت بمبة كشر عصرها !

وقال حمادة ذات ليلة :

ــ صادق لم يعُد كالعهد به ، ألم تلاحظوا ذلك ؟

فقال طاهر عبيد :

ــ كما تقول تماما ..

ولما جاء صادق فى ميعاده المتأخر نسبيا أحاطت به الأعين متفحصة . ولاحظ هو ذلك ولكنه تجاهله . وقال حمادة :

ــ فيك شيء تغير !

فتنهد واستمر فى صمته . وتوالت الأسئلة عن الصحة والأحوال حتى قال ..

ـــ إحسان لم تعد كما كانت ..

شد انتباهنا بقوة . تستحوذ الأسرار العائلية علينا أحيانا بأشد ما تستحوذ المذابح الدكتاتورية أو الأفكار الفلسفية .. وواصل صادق حديثه قائلا :

ـــ إنها اليوم أمّ مائة بالمائة ..

ولم نفهم نحن العزاب ، ولكن طاهر أيضا يبدو مثلنا .

ـــ مع واجبات البيت ، فلا شيء يهم إلا الصغير ..

ونظر فى وجوهنا بوجه جاد ثم قال :

ـــ وأنا ؟! ، حسبت أن الأمومة تبدأ هكذا ثم يرجع كل شيء إلى أصله ، ولكن انتظارى نفد ..

فقال طاهر عبيد :

ـــ الوقت يتسع لكل شيء ..

فتنهد صادق قائلا :

ـــ كانت شعلة فأصبحت رمادا .

ـــ لعلها الصحة ؟!

ـــ الصحة فى أحسن أحوالها .. بل لعلها تسمن أكثر مما يجب ، تفقد رشاقتها ، وتطل من عينيها نظرة هادئة بل خامدة ، وتعنى بكل شيء ولكنها تهمل نفسها ، منظر جديد تماما ..

وتساءل طاهر :

ـــ لا مؤاخذة .. هل ..

فقاطعه بصراحة :

ـــ تستجيب إذا استجابت بدافع الواجب لا الرغبة !

ـــ هل وقع بينكما شيء ؟

ـــ أبدا ، نحن على أتم صفاء ، المسألة أعمق من ذلك .

فقال له إسماعيل :

ـــ عليك بالمزيد من الصبر .

ـــ قلت لها مرة : ما لك يا عزيزتى ؟ لماذا تهملين منظرك ؟ . كنتِ دائما وردة يانعة . فاعتذرت بعملها فى البيت وعنايتها بالولد .. أعذار واهية وغير مقبولة .. ، وأكثر من ذلك فهى راضية وسعيدة ، غاية فى النشاط ، لا تهمل شيئا ولكنها تهمل أهم شيء ، بيتنا مثال فى نظافته وطعامه ، الولد يتألق دائما فى اللفائف الناصعة ، ورغم ذلك فربة البيت كبرت مائة عام !

ونظر حمادة إلى طاهر عبيد وسأله :

ـــ كيف ترى ذلك ؟

فقال طاهر :

ـــ إنها حال شاذة ..

فتساءل إسماعيل :

ـــ هل يلزم استشارة طبيب ؟

فقال صادق :

ـــ لمحت إلى ذلك فاستاءت ودمعت عيناها .. ، إنها مثال فى الحياء والتهذيب والطاعة فاعتبرت تلميحى إهانة ، وذكرتنى بأنه لا ينقصنى شيء .. فقلت لها إن العلاقة بين الزوجين لا يمكن أن تكون واجبا مفروضا ، فأكدت لى أنها ليست كذلك !

ولم نملك إلا أن نحثه على الصبر ونمنيه بالشفاء ، ولكننا أدركنا مدى خطبه . إنه رجل يتفانى فى عمله ولا عزاء له فى يومه الشاق إلا الحب ، وهو لا يشبع منه

فكيف يصبر على بلواه ؟!

وأخيرا قال لنا :

ـــ ثم إنها حملت من جديد وأخشى أن يزداد الأمر سوءاً ..

وبات صادق أقلنا مرحا . وجاءته إحسان بابنه الثانى « صبرى » ، وازدادت الحال سوءا كما توقع حتى قال لنا :

ـــ إنها سيدة مثالية ، وأُمّ مثالية ، أما أنا فزوج بائس ..

وصمد قشتمر وكأنه وطن ثان لنا . وتُوفِّى صاحبُه الكهل وحلَّ محله ابنه . وترددت فيه أصواتنا تحتفل بسقوط صدقى . وبشائر سياسية جديدة ، وأنباء عن نجاح النازى فى ألمانيا بزعامة هتلر ، ومعاهدة ١٩٣٦ . فى أثناء تلك الفترة الطويلة نسبيا لاحظنا أن حمادة يسرى الحلوانى يهتم اهتماما خاصا بالعمارة القائمة فى الجانب الآخر من الطريق . هناك فى الدور الرابع تلوح فتاة فى النافذة حينا وفى الشرفة حينا آخر . بنت تستحق الاهتمام ، ظهرت حديثا فى أسرة سكنت فى العمارة منذ وقت قصير . ومن موقعها القريب نسبيا يتبدى وجهها الأسمر المستدير غاية فى اللطف ، بعينيها الواسعتين وشعرها الغزير ، فى هالة محترمة تدل على أنها بنت ناس . ثم تتابعت الأخبار مسجلة أن أباها طبيب منقول من الأرياف ليشغل وظيفة هامة فى وزارة الصحة . وقع حمادة ـــ فيما بدا ـــ فى شباك الحسن المطل ، فواظب على الحضور إلى قشتمر مبكرا لينعم برؤيتها فى ضوء النهار . كان الوقت ربيعا ، ونحن فى الربيع والصيف ننقل مجلسنا إلى الحديقة الصغيرة فلا يقوم حاجز بيننا وبين الجانب الآخر من الطريق المفضى إلى شارع فاروق . وكان قد بلغ الخامسة والعشرين أو ما يزيد وليس فى حياته من قصص الحب إلا تلك القصة الخاطفة التى أجهضت فى معركة . وبعد أن أقام لمزاجه ركنين فى خان الخليلى والجبلاية زود حياته بالعلاقات النسائية الطائرة ، فتجىء المرأة مرة أو مرتين

ثم تذهب لحالها ، وهو يجد مسرته فى التنقل دون ارتباط أو التزام كحاله فى الآراء والمذاهب . فلأول مرة تعتوره أمارات العاشقين ، فيرسل النظر ، ويتورد خداه ، ويتخلى عن الاستهانة ، ويقلقه الشوق والوجد . وقال صادق متناسيا شجونه :

ــ لا يدهشنى ذلك على أى حال ..

ولم ينف حمادة التهمة مستسلما لسحر الواقع . وقال طاهر عبيد :

ــ على بركة الله ! .. اشتقنا للأفراح والليالى الملاح ..

ولم تضع رسائله فى الهواء فتلقى رسائل من العينين الواسعتين ونحن شهود ، حتى قال إسماعيل قدرى :

ــ آن لك أن تتحرك ..

نحن نحب الحب ، ونرحب بنسائمه ، علَّها تخفف من توتر جونا المشحون بنبوءات الحرب ، ونُذُر السياسة ، وعواصف الثقافة المفعمة بالمتعة الضارية والشكوك العاتية . ولكن صاحبنا يتمتع ويحلم ولا تند عنه حركة . وقال إسماعيل مفسرا :

ــ اعذروه ، ليس من اليسير أن يبيع حريته الطاغية ويسلم قلبه وروحه للقيود الأبدية ..

ولكن الحركة دبت فى الجانب الآخر بشجاعة فائقة ونية صافية . ظهرت فى الشرفة ذات أصيل فى ثوب أنيق وهيئة دالة على الخروج إلى الطريق . وألقت عليه نظرة ناطقة لا تحتمل التردد بعد ذلك . هتف طاهر :

ــ دخلنا فى الجد ؟

وتساءل صادق :

ــ هل تخرج وحدها ؟

ورجع طاهر يقول له :

— إنها دعوة صريحة فعليك أن تستجيب بطريقة ما ، جُسَّ النبض بإشارة ..

وزرر جاكتته كمن يتأهب للقيام ، فابتسمت ابتسامة واضحة . وقال له إسماعيل :

— توكل على الله ..

من شدة توتره لم يبتسم . غابت الفتاة من الشرفة وقام هو فى شيء من الحدة وغادر الحديقة . أتبعناه أنظارنا حتى اختفى . وقال صادق :

— إنها تدعوه إلى لقاء فاصل ، وسوف يتزوج حمادة قبل نهاية العام .

جاء فى اليوم التالى متأخرا ، وطالعنا بوجهه القديم الهادئ الخالى من ذبذبات العواطف وتوهج الأمل . وجمنا بعض الشيء وتساءل طاهر فى إشفاق :

— هل نهنئ ؟

فبدرت منه ضحكة باردة وقال :

— انسوا الموضوع تماما ..

ولكن حب الاستطلاع لم يترك لنا حيلة ، فقال بضيق :

— انتظرت أمس عند محطة الترام ، وحتى تلك اللحظة كنت عاشقا تماما ، كما كان صادق وكما كان طاهر ..

— ثم ؟ ..

— رأيتها بصحبة مامتها قادمتين نحو المحطة ، تخيلت ما سيحدث ، سنستقل معاً حجرة الدرجة الأولى ، يتم التعارف ، نجلس بعد ذلك فى مكان مناسب لتحديد الخطوط الأولى ، أجل لم يعد بينى وبين النهاية إلا خطوة ، خطوة واحدة وأنتقل من حال إلى حال ، من دنيا إلى دنيا ، من فلسفة إلى فلسفة ، وسرعان ما وجدتنى على برزخ فاصل بين حلمى الطويل بالحرية المطلقة وبين عاطفة طارئة مغرية تدعونى إلى العبودية ، وشعرت بتمزق فظيع ، البنت جميلة وتطالعنى بعينين

مرحبتين ، ووراءها أمها تضفى علينا طهارة وشرعية ، تمزقتُ تماما ، ملكنى رعب هائل ، وجاء الترام ووقف ، وصعدَت إليه أمها ، ثم تبعَتها وهى تبتسم إلى ، وما علىَّ إلا أن أصعد وينتهى كل شىء ، ولكننى تسمرت فى مكانى ، ونظرت بعيدا هربا من عينيها ، وتحرك الترام ، ولبثت فى موضعى وأنا أتنهد بعمق وأتذوق النجاة وترتعش أطرافى من شدة الخجل ..

لفنا الذهول مليا ثم انفجرنا ضاحكين :

— الله يخيبك يا بعيد !

— أحرجت البنت وأمها ..

— بنت مناسبة جدا ..

— سوف تندم ..

وعند ذاك قال برجاء :

— انسوا الموضوع تماما ..

وسكتنا احتراما لمأساته . ربما نعود إلى الموضوع فيما بعد . الحق أن الموضوع فى ظاهره بيِّن الوضوح ، فهذا رجل يعشق الحرية المطلقة ، وله من الظروف المادية ما ينيح له ذلك . ولكن كيف يطيق إنسان سوى ألا يلتزم بشىء ؟ .. لقد تصور إسماعيل قدرى أنه رجل عاجز عن الحب الحقيقى ، ولكنه أحب الفتاة ، وهل لا يكون الحب حبا إلا إذا جرى على شاكلة حب المجانين أو حتى الحب السينمائى ؟! ولكن حمادة فى هذه الدنيا كزائر متحف للعرض لا للبيع . فى السراى مع مامته ، فى خان الخليلى مع الجوزة ، فى العوامة مع المحترفات ، فى المكتبة مع العقول والقلوب . وقال إسماعيل قدرى مرة :

— إذا تعددت الأهداف تلاشى الهدف .

أما صادق صفوان فسلم بالأمر الواقع قائلا :

ـــ أعترف بخطئي وأقول إن حمادة لن يتزوج أبدا ..

وقد تزوج أخوه توفيق بعد عام واحد من وفاة أبيه ، وعن طريق أمه عفيفة هانم بدر الدين ، من إحدى عقائل الأسر الكريمة بالعباسية الشرقية . وأرادت الهانم أن تزوج حمادة أيضا ولكنه خيب مسعاها فى ذلك أيضا . وقالت المرأة متسائلة :

ـــ لا عمل ، ولا دراسة ، ولا زواج ، لماذا تعيش ؟!

أما الشيء الردىء فهو أن أسرار الحياة الخاصة لحمادة يسرى الحلوانى قد فاحت فى العباسية ولهجت بها الألسنة . وما العباسية إلا قبيلة كبيرة لا يخفى فيها سر . عرف الناس سر الفتى الحائر ، وشقته الشرقية بخان الخليلى وعوامته الجميلة بشارع الجبلاية ، وعُرف بالحشاش المنحل . وقالت عفيفة هانم :

ـــ يا خسارة أولاد الأكابر ، ومن حمادة الحلوانى إلى طاهر عبيد يا قلبى لا تحزن !

وقيل أيضا إن شلتنا اعتُبرت المسئولة عن تدهو ابنَى العباسية الشرقية ، ولما انتهت إلينا تلك الأنباء تساءل إسماعيل قدرى ضاحكا :

ـــ أنُلام على خلق شاعر شعبى فريد وعمر خيام حديث ؟!

أما صادق صفوان فقال مازحا أيضا :

ـــ الحق أن العباسية الشرقية هى التى أفسدتكم بتقديمها الخمر والحشيش لكم فى خان الخليلى والجبلاية ، فويل لأولاد الناس الطيبين من أبناء الذوات !

ولكن إسماعيل قدرى هو من يستحق الرثاء حقا . ولو حسنت أحواله لتقدم الجميع فى طريق الزواج لما عرف عنه من الانضباط وحب الاستقرار . ومما يُحسَب له أن أوار وطنيته لم يخبُ رغم إحباطه الشديد ، وأنه كان أشدنا غضبا وسخطا على الملك فاروق فى خلافه مع الوفد ولم يغفر له إقالته الوقحة للنحاس

أبدا ، وقال بعنف :

ــ قديما كان ماهر والنقراشي يصدران حكم الإعدام على الخونة ، أما اليوم فهما يستحقان الإعدام ..

وفى تلك الأيام توفى صفوان أفندى النادى والد صادق . إنه ألصق الآباء بوجداننا بسبب شاربه الأشهر ، ودُفن يوم إقالة النحاس من الوزارة . ويحكى صادق خبر والده فيقول :

ــ كنت منهمكا فى عملى بالدكان عندما جاء أبى لزيارتى على غير عادة ، قال لى إنه أحب أن يجالسنى قليلا قبل أن يذهب إلى مقهى عبده بميدان فاروق ، فرحبت به بكل حبى واحترامى ، وأحمد الله أننى لم أتخلف عن زيارة بيتنا فى بين الجناين كل يوم جمعة وأننى لم أقصر فى معاونته بعد إحالته على المعاش ، ورأيته نحيفا أكثر من المألوف فرقّ قلبى له جدا ، وراح يسألنى عن إبراهيم وصبرى وإحسان ، رجوته أن يُعنَى بصحته ، فقال لى باسما : إن جدى كان أنحف منه لكنه عاش بعد الثمانين ، ثم ودعنى وانصرف داعيا لى ولأسرتى بطول العمر ، وقبلت يده وصحبته فى سيره حتى ناصية أبو خودة ، وأنتم تعرفون ما حدث بعد ذلك ..

أجل فقد مات بالسكتة القلبية وهو يلعب الطاولة فى مقهى عبده . وجاءنا الخبر فى قشتمر فقمنا مع صادق جميعا ولم نفارقه حتى وُورى الرجل فى التراب . وقد حزن صادق لوفاة أبيه حزنا شديدا ، وصلى على جثمانه داخل قبره . وفى السرادق ليلا استمعنا لتلاوة الشيخ الشعشاعى ، ورأينا رأفت باشا الزين بين المعزين ، ولم يخل ركننا من حديث عن السياسة والإقالة .

وشهِدَنا مقهى قشتمر ونحن نودع الشباب ونخطو أول خطوة فى الرجولة . ومارسنا الحياة بين العمل والثقافة والسمر ، وكابدنا حياتنا السياسية بين الأمل والنكد ، وكأنما قضى علينا بمواجهة تحديات غليظة راسخة نرسف فى أغلالها

ونعانى من قهرها . وبعيدا عن ذلك ؛ منا من يستمتع بكل متعة متاحة كحمادة ، أو مَن يثبت أقدامه فى دنيا المال كصادق ، أو من يحقق ذاته فى عالم الفن والشهرة كطاهر ، ومنا من ينتظر . وتخضب سمرنا أحيانا بلون من الحديث جديد عن جيل جديد ؛ عن إبراهيم وصبرى ابنَىْ صادق ، ودرية ابنة طاهر . إبراهيم اليوم ابن تسع وهو فى المرحلة الابتدائية بمدرسة الحسينية للبنين ، ودرية تشارف الثامنة وهى فى المرحلة الابتدائية بمدرسة العباسية للبنات ، وصبرى فى السابعة يتأهب للالتحاق بالابتدائى . ونسأل أحيانا : كيف يتعاملون مع أبنائهم ؟ ويقول صادق :

— رعاية فى غير شدة ، والاستثناء وارد أيضا ، أحيانا تهولنى جرأتهم علىّ وعدم خوفهم منى ، ولكن أليس ذلك أفضل ؟

أما طاهر فيقول :

— أنا مغرم بدرية ؛ بجمالها وفطنتها ، لا أمد يدى إليها بأذى ، وأحُول بينها وبين مامتها أحيانا ، رئيفة تعتبر شديدة بالقياس إلىّ . ولا بأس من ذلك ..

وقد عرفنا الأولاد وعرفونا فى عطلات الأعياد عندما صحبوا آباءهم إلى قشتمر فى ملابسهم الجديدة .

وتلبد جو الأرض بالغيوم ، ومضت الدراما الإنسانية فى نموها نحو التأزم والتوتر ، حتى اجتاحت الجيوش الألمانية بولندا ، وما لبثت انجلترا وفرنسا أن أعلنتا الحرب على ألمانيا ، وقال إسماعيل قدرى :

— ها هى الحرب العظمى الثانية ..

فقال حمادة متسولا من الهواء طمأنينة :

— ولكن إيطاليا لم تعلن الحرب !

على أى حال لم يشك أحد فى أنها ستعلنها اليوم أو غدا ، ومن ثَمَّ تصير مصر

ميدان حرب بين الحلفاء والمحور . ونشطت الحكومة إلى التأهب حيال المجهول ، فأذاعت المعلومات المفيدة عن الغارات ولفتت الأنظار إلى الإرشادات الواجبة ، ومضت تطلى مصابيح الشوارع باللون الأزرق ، وتضفى على لياليناسوادا لا عهد لنا به ، بل وبدأت تخطط لحفر المخابئ فى شتى الأحياء .

ولم تتوقف عجلة حياتنا عن الدوران ، وشحنتها الأخبار بالإثارة واليقظة .

حمادة الحلوانى يواصل حياته بين السراى والعوامة وخان الخليلى . وأضاف إلى تنقلاته بين المذاهب تنقلا جديدا بين المحور والحلفاء ، فليلة يكون مع المحور ، يشرح بحماس النازية وفلسفتها العنصرية متابعا جذورها إلى أعمق أعماق الجنس الآرى . وليلة يكون مع الحلفاء مؤيدا للديمقراطية ، منوها بثوراتها التاريخية وما أهدته إلى الإنسانية من مبادئ الحرية والمساواة والإخاء . وقد اشترى سيارة فورد من طراز حديث ليؤمن نفسه ضد الظلام وجنود الحلفاء الذين أخذوا يزحمون الشوارع . وتشكّى قائلا :

ـــ الويسكى يختفى ، والحشيش ترتفع أسعاره ، والنساء بصفة عامة يفضلن الجنود على المدنيين ، فأى ميزة تبقى لنا كأمة غير محاربة ؟!

فقال له إسماعيل :

ـــ سوف تنشب الحرب فوق أرضنا ..

ولكنه قال ضاحكا :

ـــ كلما اقترب الموت انفجرت لذة الحياة ..

وطاهر عبيد تحسنت أحواله المادية ، ودعى أكثر من مرة لتأليف أغانٍ للأفلام . وانتقلت حماته إلى رحمة الله فى أعقاب إصابتها بالتهاب رئوى ، فجدد أثاث الحجرتين بأن جعل إحداهما للمعيشة والسفرة والأخرى مكتبة . وقال له صادق مرة :

ـــ لو زرت فيللا بين السرايات ومعك درية لغزَت البنت القلوب المغلقة !

فقال طاهر بإشفاق :

ـــ أخاف ألا تُستقبل درية بما هى أهل له من المودة فيتغير قلبى من ناحية والِدَى اللذين ما زلت أحبهما ..

ـــ ولكن للحفيد سحرا لا يقاوم ..

فقال طاهر ضاحكا :

ـــ إنك لا تعرف والدَى كما أعرفهما ..

وفى تلك الفترة أقلعت رئيفة عن ممارسة عملها وقنعت راضية بوظيفة ست البيت ، ولكنها حافظت بمهارة وإصرار على رشاقتها ، وبدافع من حبها واعتزازها بزوجها عودت نفسها على النظر فى الجريدة والمجلة .

أما صادق صفوان فله حكاية لم نطلع على أسرارها إلا حين تمت فصولها . يبدو لنا دائما رجلا مجدا ذا جاذبية خاصة لزبائنه بما طبع عليه من حلاوة فى الخَلْق والخُلُق . أجل إن مشكلة إحسان تزمن مع الأيام وهو يحاول مسايرتها دون إخفاء لكدره وهمه . غير أنه فى ذات ليلة قرر أن يبوح لنا بسره فقال :

ـــ الحرب شر لا شك فى ذلك ولكنها لا تخلو من خير !

ودهشنا لقوله ، وتساءل طاهر مداعبا :

ـــ هل تتفلسف على آخر الزمن ؟

أما الحكاية فترجع بدايتها إلى اليوم الذى تولى فيه هتلر الحكم . وفى إحدى زياراته لرأفت باشا الزين قال الباشا :

ـــ الحرب قادمة آجلا أو عاجلا .

فقال صادق :

ـــ ربنا فوق الكل ..

فقال الباشا :

ــ عليك أن تستعد لها كما يستعد الحلفاء ..

ــ أنا يا سعادة الباشا ؟!

ــ الإبرة التى تبيعها اليوم بمليم ستختفى وتجد من يشتريها بخمسة قروش ، هل فكرت فى ذلك ؟ . التجارة ليست مجرد شراء وبيع ولكنها فكر وتخطيط ..

فنظر إلى قريبه التاجر الأكبر بإكبار وذهول ، فقال الباشا :

ــ خزّن كل سلعة مستوردة .. أسلحة الحلاقة .. الأقلام .. النفاثات .. الحلوى .. كل شيء .. اشترِ التراب لتبيعه ذهبا ..

هذه هى الحكاية . ونظرنا إليه مستطلعين فقال :

ــ خصصت حجرة فى شقتى للخزين .. وابتعت بكل قرش يفيض عن ضروريات الحياة الأشياء الرخيصة الثمينة ..

فقال طاهر ضاحكا :

ــ هكذا تتكون الثروات حقا !

فقال صادق بارتياح :

ــ الحمد لله رب العالمين ..

وأخذت تنهمر عليه النقود . واحتل الزين باشا فى قلبه المنزلة الثانية بعد الله . وجدد أثاث شقته ، وبرَّ أمه فى شيخوختها فوالاها بالرعاية وزودها بما تحتاج إليه من مأكل وملبس ، ولدى أقل شكوى صحية يجيئها بأطباء وسط المدينة متجاوزا أطباء الحى . ولكن ذلك كله لم يخفف من كدره من حياته الزوجية ، بل لعله ضاعفه وصعد به إلى ذروة التوتر . وقال له حمادة الحلوانى :

ــ مثلك يُعذر إذا سعى إلى امرأة ..

فقال بحزم :

ـــ ليس لى فى الحرام رغبة ..

وهو على تلك الحال جاءته ليلى حسن لشراء بعض الأدوات المدرسية . سمراء ممتلئة العود ، ساخنة النظرة ، مثيرة ، محتشمة الزى . أثارت اهتمامه وغرائزه ، ولم يكن ممن يحسنون إخفاء الباطن ففضحته . وبغزوتها المباغتة شغلت وعيه طوال الوقت وهو لا يحلم برؤيتها ثانية . لكنها جاءته بعد أيام لتستبضع . فرح بها فرحة انتزعته من تقاليده فقال لها :

ـــ لستِ من العباسية فيما أعتقد ؟

فتساءلت فى دعابة :

ـــ حضرتك شيخ حارة ؟

ـــ أعرف الجميع سواء فى الدكان أو فى الطريق ..

فقالت وكأنها تعرّفه بنفسها :

ـــ نحن من الوافدين حديثا ، نسكن فى عمارة عم خليل لقربها من المدرسة التى أعمل بها ..

فقال منتشيا بسروره :

ـــ تشرفنا ..

ـــ العباسية حى خطر لوجود الثكنات الإنجليزية بها .

ـــ الله هو الحافظ ..

شعر بأنه يوجد قبول واستجابة . وقص علينا القصة . وفكرنا فى الأمر طويلا غير أن حمادة كان أجرأنا فقال له :

ـــ ظروفك سيئة وأنت تُعذَر إذا تزوجت مرة أخرى ..

ـــ فقال دون أن يفلح فى إخفاء ارتياحه :

ـــ ولكن لإحسان منزلة لا تعدلها منزلة .

فقال حمادة :

ـــ احتفظ بها معززة مكرمة مع ابنيها ، وهى ستفهم وتقدِّر وتَعذر .

وجاءته أخيرا بصحبة امرأة فى الحلقة السادسة حدس لتوه أنها أمها ، فقال لها يجرها للحديث :

ـــ مبارك ، إنهم يبنون مخبأ قريبا من عمارتكم ..

فقالت ضاحكة :

ـــ نعم ، على أى حال وبصرف النظر عن الثكنات فالعباسية حى جميل .

فقال مجربا نفسه فى الغزل :

ـــ العباسية تشرفت بأجمل بنت فيها ..

ابتسمت المرأة فى سذاجة ودارت ليلى ابتسامة وانتهى الموقف على خير .

ويقص علينا ما يحدث ووجهه يتألق بالسعادة فلم نشك فى أنه وقع فى الهوى من جديد ، إنه شاب طيب ، وهيهات أن يعرف امرأة إلا عن سبيل الزواج . واقتنعنا تماما أنه لا مفر من الزواج . وفى الحال كلفنا أهل الخبرة بالتحرى عن الأسرة الجديدة بعمارة عم خليل . وجاءت المعلومات تقول : إن الفتاة اسمها ليلى حسن ، فى الثلاثين من عمرها ، أى تماثل صادق فى سنه ، مدرِّسة بمدرسة العباسية الابتدائية ، وأمها ست عيشة أرمل ذات معاش بسيط ، أسرة على قد حالها . لعلها لم تكن لترضى بالزواج من خردواتى لولا حسن سمعته وثراؤه ووسامته بالإضافة إلى حصوله على البكالوريا .

ومضى فى حلمه إلى غايته فرنا إلى عمارة جديدة تشطب على الجانب الآخر من الطريق العام أمام دكانه فقرر أن يحجز بها شقة للعروس الجديدة إن وفق فى مشروعه . وإذن فقد صدقت نيته وتوكل على الله .

ومع الحرب هبت على حينا رياح التغير لا ممتعة ولا سارة . شُقَّ شارع طويل

عريض بين شارع العباسية وشارع الملكة نازلى ، واخترق الحقل القديم الذى كنا بفضله نتمتع بجمال الريف بالإضافة إلى حضارة المدينة . ورحل عم إبراهيم وسكت نعير الساقية واختفت الخضرة المنعشة جارفة معها الشفافية والعذوبة والروائح الذكية ، وحلت محلها على جانبى الطريق الجديد خرابات قاحلة سرعان ما استغلت لبيع نفايات الجيش البريطانى من السيارات الكهنة وتلال المطاط والأدوات الميكانيكية والبطاطين المستهلكة . لم نعد نسمع إلا الدق وضوضاء الشارين وشجار المتساومين ، ولا نرى إلا غبار عربات النقل . وفقد الشارع العمومى هدوءه ، وجرت فوق سطحه عشرات اللوريات ، وتضاعف عدد الترامات واكتظ بعمال الأورنس ، وانتشر الجنود حتى فى المقاهى البلدى . وبيعت جملة من سرايات العباسية الشرقية المطلة على الشارع العمومى ، وشرع فى إقامة عمائر شاهقة فى مكانها وأخذ يتمايل فى الأفق منظر حى جديد مكتظ بالسكان والدكاكين ، ويطوى فى نموه المتصاعد الحى القديم بسراياته المعدودة وبيوته الصغيرة الأنيقة وسكانه المعدودين الذين تربط بينهم روابط الأسرة الكبيرة الواحدة . وفى أثناء ذلك ، قبيل شروع صادق فى زواجه الثانى وفى خلاله ، وثب صديقنا وثبة أعلنت للملأ ثراءه ، فقد استأجر فى العمارة الجديدة التى تشطَّب أمامه دكانين كبيرين فى أسفلها ، وجعل منهما دكانا كبيرا ، وهيأه بالديكورات والتجميل ، وانتقل إليه ، فلم يعد الخردواتى الوحيد ولكن الخردواتى الفريد الذى يضاهى فى منظره ومعروضاته محال وسط المدينة . ونقش أعلى مدخله على لوحة طويلة عريضة اسم « النادى » يقرأ نهارا بالخط الكوفى وليلا بالمصابيح الكهربائية ، وجلس وراء منصة الحساب مستخدما للعمل موظفا شابا يدعى رشدى كامل . وبطيبته المعهودة قال لنا :

— حلمى يتحقق بفضل الله أولا والزين باشا ثانيا .

(تستمر)

فقال طاهر مداعبا :

ـــ وهتلر ثالثا !

ومضى ينفذ ما اعتزمه ، ولعل طاهر كان الوحيد الذى أبدي شبه معارضة حين قال :

ـــ أعتقد أنه يكفى الإنسان زوجة واحدة إن حرص حقا على راحة باله .

فقال صادق :

ـــ إحسان عاقلة .

فقال طاهر :

ـــ النساء يفكرن بقلوبهن .

وأفضى صادق بنواياه إلى أمه ست زهرانة فارتبكت المرأة وقالت له :

ـــ لم يحدث هذا فى أسرتنا قط .

ولما بثها شكواه فى شيء من الصراحة دعت له بالتوفيق . ولكنه لقى قهرا فى مصارحة إحسان حتى تمنى لو كانت على غير هذا المثال من الطِّيبة والطاعة والنشاط رغم بدانتها المتنامية . وطبعا هو لم يواجهها إلا بعد أن اطمأن إلى موافقة ليلى وأمها . بل إن ست عيشة لم تبارك رغبته إلا بعد أن أقنعها بأنه لم يقدم على خطبة ابنتها إلا بسبب مرض زوجه الأولى التى يتعهد بالاحتفاظ بها رغم كل شيء . وعند ذاك قالت له حماته الجديدة : « بارك الله فيك فنحن لا نحب أن يقال عنا إننا نخطف الأزواج من زوجاتهم » . ورضى صادق بصفة عامة ولو أنه تمنى لو كانت تصغره ببضعة أعوام ، كما أنه تضايق بعض الشيء لما عرف أنه كان لها خطيب سابق انتهت خطبته بالفسخ ، ولكنه فسر ذلك بفقر الأسرة وعجزها عن تجهيز العروس بما يليق . ومما أخبرنا به أيضا أن أمه ـــ ست زهرانة ـــ صارحته بأنها لا تطمئن كل الاطمئنان للموظفات ، وكيف أن زبيدة هانم حرم الزين باشا

سخرت من تلك الأفكار البالية قائلة إن بنات الأسر الكريمة يتعلمن اليوم ويتوظفن كالرجال ولا غبار على ذلك . المهم أنه خلا إلى إحسان وقال لها وهو يشعر بحرج لم يشعر بمثله من قبل :

ـــ إحسان ، عَلم الله أنك أعز مخلوق فى حياتى ..

والغريب أنها حدجته بنظرة قلقة كأنما حدس قلبها ما ينوى قوله ..

ـــ لم تعد لى حيلة ولا صبر ، ومن الخير لكلينا أن أتزوج ..

توقع غضبة لو وقعت لكانت الأولى فى حياتهما غير القصيرة . ألقت عليه نظرة سريعة ثم غضت بصرها كالخجلة أو الخائفة ، ثم أخفت وجهها فى راحتيها .

ـــ سيظل هذا البيت بيتك وبيت أولادك ولن يفرق بيننا شىء ..

وكأنما لم تجد إلا الصمت لتعاقبه به .

ولما رجع إلى شقته مساء عقب سهرته فى قشتمر لم يجد إلا الخادمة التى أخبرته أن الست أخذت إبراهيم وصبرى وذهبت إلى بيت والدها بشارع أبو خودة . ولم يصبر إلى الصباح فذهب إلى أبو خودة ليجد إبراهيم أفندى الوالى وست فاطمة فى انتظاره . أى حزنٍ وجَد ! . قال إبراهيم أفندى :

ـــ إحسان خير بناتى ولكنها سيئة الحظ .

فقال صادق ليلطف من حرارة الجو :

ـــ هى خير النساء جميعا .

وشرح همه بالتفصيل الضرورى . وعلى أى حال رجعت إحسان إلى بيتها فى اليوم التالى بصحبة صادق . أما هو فبدأ من فوره فى تنفيذ ما عقد العزم عليه . وعرفنا الأخبار فى توالدها وتتابعها . فقد صارحته ست عيشة بأن ما لديهم من نقود يكفى بالكاد لتجهيز ثياب العروس ، فتعهد بتأثيث الشقة الجديدة . وطالبت ليلى بأن تكون الدخلة فى العطلة الصيفية ، واعتذر هو عن عدم إقامة

أى احتفال احتراما لمشاعر زوجه الأولى . وهنا قال طاهر عبيد :

ـــ عندنا كازينو العائلات بالظاهر ..

وقد كان . وتم التعرف بيننا وبين ليلى . وتناولنا عشاء طيبا ، وتجول بهما حمادة فى سيارته فى خلوات القاهرة ثم رجع بهما إلى العش الجديد . هكذا وجدَتْ حيويةُ صديقنا المتدين العفيف إشباعا مشروعا . وتمتع صديقنا بعروسه فى الليالى المظلمة على صراخ زمارات الإنذار ودوى المدافع المضادة . وفى عز الشتاء بغتنا يومُ ٤ فبراير بدباباته وعودة الوفد المفاجئة إلى الحكم . ارتفعت الأصوات فى قشتمر منا ومن سائر الزبائن وتضاربت الأقوال . الناس سعداء لعودة الوفد ولكنهم واجمون أمام ما يقال من أنه جاء على دبابات الإنجليز . ولم يتردد طاهر عن أن يقول ساخرا :

ـــ ألا ترون أن جميع رجالنا خونة ؟!

وقال صادق :

ـــ من العسير جدا أن يتهم إنسان مصطفى النحاس بالخيانة ، ولكنى لا أدرى ماذا أقول ..

وقال حمادة الحلوانى :

ـــ كل وزارة تجىء فبأمر الإنجليز ، فلماذا نتكدر إذا توافق أمرهم مع رغبة الشعب ؟

أما إسماعيل قدرى فلم يفتر حماسه ولا ساوره شك . لقد شك فى كل شىء إلا الوفد . يبدو أمام الأفكار كالفيلسوف ، ولكنه أمام الوفد مؤمن بسيط من عامة الشعب المتحمس ، وقال بثقة :

ـــ لا تشكوا فى الوفد وشُكوا ما شئتم فيما يقال !

وذات ليلة دهمتنا أول غارة حقيقية . استيقظنا على زلزلة القنابل .

هذه انفجارات فى الأرض تخفق بها بيوتنا وليست طلقات مدافع مضادة فى الهواء . إنه الموت يهدر من حولنا . وهرعنا لا نلوى على شىء إلى المخابئ . وفى مخبأ واحد اجتمع إسماعيل وأمه وطاهر ورئيفة ودرية ، وصادق وعروسه ، وإحسان وإبراهيم وصبرى وست زهرانة . حفر الرعب حفائره فى صفحات وجوهنا . وتَمثل لنا الموت فى قربه وعنفه وصوته . صوتت النساء وصرخ الصغار وتجملنا نحن بالخرس . ولم تستمر الغارة أكثر من خمس دقائق وربما أقل ولكننا كنا كالعاجز عن التنفس لغوصه تحت سطح الماء . ولدى أول نفس تتنفسه فى استرخاء وإعياء قال طاهر بصوت متهدج :

ـــ هل يقضى علينا بأن نعيش فى الخيام ؟!

وبعودتى إلى الواقع . ورجوعى إلى الوعى ، وجدتنى أعيش بين ليلى وإحسان . كلتاهما ترتديان قميص النوم ومتلفعتان بروب ، الشعر مشعث والوجه شاحب . وعلى حين تبدت ليلى جميلة رغم كل شىء فإن إحسان ذاب جمالها فى برميل من الدهن . وخرج صادق من هول الغارة ليجد نفسه فى حيرة ممزقة بين أفراد أسرتيه المتباعدتين . ذهب وجاء وجاء وذهب . وتعلق به إبراهيم وصبرى ولاح فى وجهه الشاحب الارتباك والحرج . ولم تخلصه من ورطته إلا زمارة الأمان التى دوت فى سكون الهزيع الأخير من الليل لترد الناس من الاحتضار إلى الحياة مرة أخرى . وقسم صادق وقته بين أسرتيه ؛ يقضى يومين فى شقة ليلى ويومين فى شقة إحسان ، وكان عليه أن ينتظر طويلا حتى تخلو حياته العائلية من توترات الغيرة . وأخذ ميزان الحرب يميل لصالح الحلفاء ، ومضت أشباح الغارات فى التلاشى ، وكالعادة أُقيلت وزارة الوفد ، واستقرت حياتنا فى قشتمر بين الراحة والأسى ، وأطل جيل الأبناء إبراهيم وصبرى ودرية على البلوغ والمراهقة ، ونوه صادق وطاهر الفخوران بتفوق الذرية فى الدراسة وولعها

بالثقافة ، ولكن ..

ـــ إنهم يشهدون الحياة السياسية فى تفسخها ، ولا انتماء لهم لحزب من الأحزاب .

ـــ لديهم تجمعات جديدة كالإخوان والماركسيين ومصر الفتاة ..

ـــ ألسنتهم طويلة وسخريتهم مريرة ..

ووضح لنا أن صادق يبذل همته ليخلق من ابنيه رجلين من رجال الأعمال ، أما طاهر فكان يترك درية لنموها الذاتى فى استقلال تام قانعا بالمشاهدة والمساعدة عند الحاجة . وما زال نجاح الصديقين المميزين يتأكد فى الثراء والفن ، وحتى إسماعيل فاز بترقية إلى الدرجة السابعة فى حكم الوفد . غير أن إسماعيل كان يدخر لنا مفاجأة بدت فى وقتها آية فى الغرابة . فذات ليلة أشار إليه حمادة الحلوانى وقال ضاحكا :

ـــ من سيارتى وفى شارع الجبلاية رأيت هذا الأفندى الداهية مع امرأة يتناجيان !

وصوبت إليه الأنظار فى اتهام مشوب بالاستطلاع . وقال طاهر عبيد :

ـــ لا بد من التصرف بعد زوال غابة التين الشوكى ..

وقال حمادة ضاحكا :

ـــ أراهن أنه اختلس المصاحف الأثرية من دار الكتب وباعها ..

وسأله صادق مؤنبا :

ـــ هل تمارس حياة سرية من وراء ظهورنا ؟

فقال إسماعيل قدرى كالمعتذر :

ـــ انتظرت حتى تكتمل الرواية لأعرف كيف أحكيها لكم ، إنها أرملة وأم عجوز ، سكنتا فى العمارة الصغيرة القائمة أمام بيتى بشارع حسن عيد ..

فقال طاهر :

ــ ولكن ليس من عادتك مغازلة السيدات !

فقال إسماعيل ضاحكا :

ــ هى التى بدأت ..

ــ وماذا فعلْت ؟

ــ استجبْت !

فسأله صادق :

ــ هل عرفت الحب أخيرا بعد أن تبوأت عز الرجولة ؟

ــ لا مجال للمبالغة ، وكل امرأة لا تخلو من أنوثة !

وسأله طاهر :

ــ وماذا تفعل وليس بين يديك غابة تين شوكى ؟

ــ لا .. لا .. إنها سيدة محترمة ..

ــ والحل ؟

ــ بالإشارة الْتقينا وذهبنا إلى الجبلاية ، هى مقبولة من نواح كثيرة ، أسمن قليلا مما ينبغى ، أغمق فى سمرتها مما أود ، فى أنفها فطس خفيف ، عيناها نجلاوان ، حديثها يقطع بأنها تبحث عن الشرع ، وفى تقديرى أنها فى الأربعين من عمرها ..

وتريث قليلا ثم واصل حديثه :

ــ أفهمتها بصراحة أننى على الحديدة !

فقال حمادة :

ــ أحسنت ، ربما رضيت بعلاقة غير شرعية حتى يفرجها ربنا !

ــ لا .. ليست من هذا النوع .. ولم أقصر فى إعلان إعجابى بها .

ــ مشكلة !

— كلا .. صارحتنى بأنها غنية ، وأن ما يهمها حقا الأخلاق والإخلاص ..

فقال صادق بسرور :

— صبر ونال .

وفرحنا له ، واعتبرنا هذه الزيجة المتوقعة أقل ما يستحقه الرجل الذى بشرت شخصيته بأعظم النهايات . ولكن ست فتحية عسل والدته لم يمتد بها العمر لتشهد استقراره . تُوفِّيت فجأة وهى تحادثه ودون أى عناء كأنها مصباح خمدت بطاريته . وكان إسماعيل قد أِلف الحياة المنظمة فى كنفها فاستقبل وحدته بكدر وانزعاج . وتكرر اللقاء بينه وبين ست تفيدة فتوطدت أواصر المحبة بينهما . وقال لنا مرة :

— من المؤلم ألا يشارك الرجل فى إعداد بيته .

فقال له صادق صفوان مشجعا :

— الزواج أهم من كافة طقوسه .

وعرف أن دخلها لا يقل عن مائة جنيه شهريا ففاق الواقع ما تخيلناه ، بالإضافة إلى مدخر من المال لا يستهان به . ولا شك أن المرأة أحبته ورغبت مخلصة فى الزواج منه . وتم الاتفاق على شراء حجرة نوم جديدة ، والاكتفاء بحجرتى الاستقبال والسفرة القديمتين . وفى أثناء الإعداد توفِّيت أم تفيدة ، وقال له طاهر مازحا :

— إنى أتهمك بقتلها ليخلو لك الجو وسأطالب بتشريح الجثة ..

وأُعِدَّ كل شىء ، وتأجلت الدخلة إلى ما بعد الأربعين ، ورُئى ألا يقام لها أى احتفال فارتاح لذلك إسماعيل زهدا منه فى حفل لا يستطيع أن ينفق عليه مليما من جيبه . وترك إسماعيل البيت الذى ولد فيه ليستقر فى شقته الجميلة مستقبلا حياته الزوجية . ومن أول يوم قال لنا :

ـــ أود أن يعفينا الله من الإنجاب ..

ولكن لم يكد يمضى شهر حتى قال لنا :

ـــ الولية حبلت ، وخاب أملى فى أن تكون قد فاتت سن الحبل ..

ويتقدم الزمن فيتمطى فوق كواهلنا كما تسقط حبات الرمل المتطايرة فوق التلال . وتنتهى الحرب وتنفجر أول قنبلتين ذريتين مُنذِرتين بمولد عالم جديد ملىء بالرعب . وتتطلع مصر إلى حياة جديدة . ويُعد صادق بين الأغنياء ولكن حياته لم تخل من همّ . واضح أنه راض جدا من الناحية الجنسية ، وأن هذه النقطة بالذات هى مدخله إلى الإذعان والصبر . وشكا لنا همه قائلا :

ـــ يبدو أن ليلى عاقر ، وهذا يُحدث لها سخطا دفينا .

فسئل :

ـــ ألم تستشر طبيبا ؟

ـــ لما طال الزمن استشرنا فأكد الظنون وازدادت غماً ..

وبالتالى لم يستطع أن يدرأ عن صفوه القلق . وأراد أن يهوِّن الأمر عليها فقال لها إنه لا أهمية لذلك . ولكنها أجابته ـــ وبحدة ـــ أنه أب ولا يهمه بعد ذلك شىء . واعترف لنا أنها رغم أنوثتها المفرطة فهى حادة المزاج سريعة الانفعال قاسية اللسان . قال :

ـــ كأنها تمارس مهنة التدريس فى البيت أيضا ..

وباتت تغار من إحسان وتتصور أنه يتلهف على زيارة بيتها ليسعد بلقاء إبراهيم وصبرى .

ـــ الحق أننى أتجنب الصدام ما وسعنى ذلك ..

وأسفنا لهذه الأخبار ، وعجبنا لحظ صديقنا الطيب الذى لا يدرى كيف ينعم براحة البال . وقال لنا :

— إنها من النوع الذى يحب أن يفرض شخصيته على من حوله ..

ولما استمرت الحال أو ازدادت سوءا اتهمها بأنها تشعر بأنها متقدمة عليه فى التعليم ، وضايقه ذلك فقال :

— إنها متعلمة ولكنها ضيقة الأفق ، لا ثقافة لها ، وجاهلة بالشئون العامة ، لا تعرف الفرق بين النحاس وصدق ، ولكنه الغرور ..

أدركنا أنه أساء الاختيار ، وتصورنا أنها واثقة من رغبته فيها فهى تستغل ذلك استغلالا سيئا يدل على سوء التقدير والتصرف . ولكن صاحبنا لم ييأس ، فكان يقول لنا :

— الأيام كفيلة بإصلاح الأخطاء ..

ولكنه ينبسط ليلة ويكفهر ليلة . ويضيق صدره فيروح عن نفسه قائلا :

— هى أحسن النساء لو هذبت طبعها ، لم أحدثكم عن إسرافها ، أنفق عليها أضعاف ما أنفق على بيتى الآخر بما فيه التزامات الأولاد ، فى بيتها طاهية ، تريد شراء كل ما يبهرها فى السوق ، تحب أن تزُور وأن تُزار ، إذا دعوتها بلطف أن تستقر فى بيتها اتهمتنى بأنى أريد أن أحبسها وأننى رجل بعيد عن العصر ، أنا لا يهمنى المصروف ، وأرحب بأى مساعدة تقدمها لأمها ، ولكننى لا أشعر بعد ذلك كله بأننى أستحق ولو كلمة شكر ..

وسأله طاهر :

— أما زلت تحبها ؟

فأجاب باستسلام :

— الحقيقة أنى أحبها .

فقال حمادة الحلوانى :

— أنت تاجر خبير ماهر ولكنك رجل بيت طيب ، لم تنكشف طبيعتك

مع إحسان هانم لأنها أطيب منك ، ولكن الأمر مختلف مع هذه السيدة ..

وسأله إسماعيل :

ــ ألا تتذكر ما قدمتُه لها عند الزواج ؟

ــ نُسِيَ كل شيء ، وطبعا لا أفكر أبدا فى تذكيرها به .

فقال حمادة ساخرا :

ــ المرأة متكبرة ، جاحدة ، لا فرق فى ذلك بين سيدة وبغيّ ..

ويعتبر إقامته فى بيت إحسان استراحة بين المتاعب . اعتادت إحسان الحياة الجديدة وربما وجدت فيها راحة من نوع معين يناسبها ، إن تكن ثمة متاعب فى بيت إحسان فهى تحوم حول إبراهيم وصبرى ، مع تفوقهما فى المرحلة الثانوية يزدادان استقلالا . وانطلاقا بعيدا عن البيت . ويتساءل هو ويتساءل ، ويتذكر أيامه وأيامنا حين مراهقتنا ويسأل الله السلامة . ودعاهما لمصاحبته فى صلاة الجمعة فى جامع سيدى الكردى فلبّى صبرى وتهرب إبراهيم . وتساءل أيضا مَن سيخلفه فى عمله أو يعاونه فيه ولكن المال لم يسحرهما ، ولا أسعدهما أن يكون رأفت باشا الزين قريبهما ، وكل يوم يمضى يتضح معه أن إبراهيم يرفض كل شىء ؛ كل حزب وكل هيئة ، وأنه لا يعفى أحدا من اتهامه ، فماذا يريد ؟ . على الأقل صبرى يعيد لدرجة ما سيرة أبيه فى التدين ، فثمة زمام يمكن أن يقوده منه .

وقال له إسماعيل :

ــ الولدان ممتازان فاقنع بذلك واسعد .

فتمتم بحرارة :

ــ الحمد لله .

ولكن ثمة مشكلة أخرى اعترضت أمنه فى بيته الأول تتعلق بصحة إحسان . لاحظ أن بدانتها تمضى ببطء وثبات دون توقف ، وأنها تنتفخ بصورة لا تغيب

عن عين أحد ، بل أخذ نشاطها يقل ، وحركتها تثقل ، وأحيانا تجلس فلا تقوم إلا بمعاونة الخادمة ، هذا بالرغم من أنها أبعد ما تكون عن الإفراط فى الطعام .

ويقول صادق :

ــ ليلى تأكل ضعفها ولكنها لم تفقد رشاقتها ..

وأخيرا رأى أن يعرضها على طبيب فاكتشف بها خللا فى الغدد ووصف لها الدواء ، ولكن الدواء لم يجْدِ ، واتبعَت نظاما قاسيا فى الغذاء دون ثمرة ، وساورها القلق على نفسها ، وشاركها قلقها من قلب بات يقدرها أكثر من الأول ، ولم يرَ بدأ من استخدام طاهية لها مسلّماً أمره إلى الله . وفى تلك الأيام وسَّع من نشاطه المالى فاشترى البيت الذى ولد فيه ببين الجناين وبيت إسماعيل قدرى بشارع حسن عيد ، وهدمهما ليشيد مكانهما عمارتين جديدتين كانتا أول عمارتين حديثتين تقومان فى العباسية الغربية ، ويسهمان فى زيادة سكان العباسية والقضاء على ما يتبقى لها من هدوء تقليدى .

حمادة الحلوانى يواصل حياته العريضة ولا يكف عن إلقاء أحاديثه الممتعة التى تمثل جولاته بين المعارف متحررا من أى التزام . وكم أشفقنا من أن يخطفه الثراء منا فيأنس إلى أناس آخرين وأجواء جديدة ويزهد فى العباسية وقشتمر ، ولكنه لم يتخلف ليلة عن قشتمر وأصدقاء طفولته ؛ ولأنه الأعزب الوحيد تعلق قلبه بحرارة بالصداقة وذكريات الماضى ، ولم يحظ بأى تعويض لدى أخيه توفيق للبرود المتبادل بينهما منذ الصغر ، واضطر كذلك للابتعاد عن شقيقته المحبوبة لما ترامى إليه من أن زوجها يتحدث عنه بازدراء باعتباره حشاشا مدمنا ، فلم يبق لقلبه من مجال يمارس فيه عواطفه سوى قشتمر وسُمَّاره القدامى . وقد ماتت أمه عفيفة هانم بدر الدين فيما يشبه المغامرة ، إذ كانت أسرته أول أسرة فى العباسية تركب فى بعض حجراتها أجهزة تكييف الهواء . وفى يوم اشتد قيظه جلست الهانم

أمام التيار البارد تجفف عرقها السائل ، فأصابها التهاب رئوى ، ولما عولجت بالبنسلين — الساحر الجديد — تبين أنه يحدث بها حساسية شديدة ففاضت روحها فجأة . وتلقى حمادة حادث الوفاة — فى منتصف الحلقة الرابعة كان — برزانة لا تتناسب مع حبه القديم لأمه . ولما كان أخوه توفيق يقيم فى المعادى وأخته أفكار فى الزمالك فقد وجد نفسه يبيت أياما فى قلعة مكتظة بالخدم والحشم ، وقد يمر أسبوع كامل لا يطأها بقدم ، فمن هنا نشأت فكرة بيع السراى . وتحركت غريزة الملكية والثراء لدى صادق ولكنه خاف أن يبتلع الثمن المطلوب — مائتا ألف من الجنيهات — سيولته المالية ، فضلا عن أنه لا يشترى مثل هذه السراى إلا ليحولها إلى عمائر وهو ما لا يتاح له الآن ، فاشتراها عم حسنين صاحب الطابونة ، وهدمها وشرع فى إقامة أربع عمائر فى مكانها . كانت أول سراى داخل العباسية الشرقية تتحول إلى عمائر ، وتجذب فيما بعد إلى سكناها أناسا ما كانوا يحلمون بالوجود فى العباسية الشرقية إلا كسياح أو عشاق متسللين . ويزداد ثراء حمادة بنصيبه من ثمن السراى وبما ورثه عن أمه وهو ما يقارب خمسين ألفا من الجنيهات . الثراء عادة من عاداته اليومية يكاد يفقد سحره ، ونطلق عليه عادة : البوق الذى يذيع كل رأى دون أن يكون له رأى . وهو دائما وأبدا القارئ السامع المشاهد الفاسق الشريب الحشاش . ولكن يغلب عليه الحشيش فيلوح فى ثقل نظرته وبطء حركته وشدة استهانته . مرة قال له صادق :

— يا بختك ، أنت أسعد الجميع وأصفاهم بالا ..

فحرك رأسه معترضا ولكنه لم ينبس بكلمة . وإذا به يقول لنا ذات ليلة :

— عندما أستيقظ صباحا أتساءل : وماذا بعد ذلك ؟!

فقال له طاهر عبيد :

ـــ إذا أتحفنا المطرب بنغمة حلوة هتفنا له : أعد .. أعد ..

فقال بهدوء :

ـــ أحيانا لا يرحب القلب بالإعادة !

فسأله صادق باهتمام :

ـــ هل بدأ الملل يناوشك ؟!

فأجاب بسرعة كأنما يدفع عن نفسه تهمة :

ـــ غير صحيح ، ما هى إلا حال تمر ، ولكن تؤرقنى مسألة !

ـــ مسألة ؟!

ـــ إن الحياة أخذ وعطاء ، أما أنا فآخذ فقط .

فقال طاهر ساخرا :

ـــ ما دام يوجد من يعطى ولا يأخذ فلا بأس أن يوجد من يأخذ ولا يعطى ..

فقال حمادة بامتعاض :

ـــ نحن نتقدم بسرعة فى ذلك الطريق المجهول المسمى بالعمر ..

وقال له صادق مواسيا :

ـــ ثم إنك تعطى كما تأخذ وأكثر ، لا تنس ما يأخذه منك المهربون والقوادون والمومسات ومالك العوامة ومالك شقة خان الخليلى والعديد من البقالين والجزارين وباعة الملابس إلخ إلخ ... لا يوجد من يأخذ دون أن يعطى ..

ونظر نحو صادق متشككا ترى أيجدُّ أم يسخر ، وإذا به يصيح :

ـــ إليكم أول شعرة بيضاء فى رءوس شلتنا المصونة ..

إنه يشير إلى رأس صادق ، وهذا يقطب ويقول محتجا :

ـــ كلا .. مستحيل ..

ودققنا النظر حتى فرزنا شعرة فى سالفه تختلف عن الشعر الأسود الغزير

الناعم ، وقام صادق يتفحص الموضع المتهم فى مرآة من مرايا الجدار ، ثم رجع مبتسما ابتسامة صفراء وهو يقول :

ــ أبى شاب وهو فى عز شبابه !

وتساءل طاهر باسما :

ــ هل تتذكرون كيف التقينا بمدرسة البرامونى الأولية ؟ كأنما حدث ذاك صباح اليوم !

فقال حمادة بلا مناسبة :

ــ قشتمر أيضا طعن فى السن وشاخ ، يحتاج إلى طلاء وتجديد فى المقاعد والموائد ، وترميم فى دورة المياه ، وحديقته المتواضعة ممكن أن تضاهى حديقة كازينو العائلات فى نضارتها ..

فقال إسماعيل قدرى :

ــ قشتمر أحب إلى نفسى من ركس أو البوديجا ..

وتساءل حمادة بلا مناسبة مرة أخرى :

ــ هل حقا أن السعادة هى مطلب الإنسان الأخير ؟!

طاهر عبيد يحرز النجاح تِلو النجاح فى حياته الشعرية والصحافية ويهيم بحب ابنته درية . الحق أنها جميلة جذابة ، رشيقة القوام ورديّة اللون واسعة العينين ذات شَعر كستنائى غاية فى الثراء . كثيرا ما نراها فى ذهابها أو إيابها من المدرسة الثانوية . وبكل فخار يقول طاهر عنها :

ــ ذكية ، شجاعة فى أفكارها ، متفوقة فى العلوم والرياضة ، تريد أمها أن تراها طبيبة ..

ويقول باسما :

ــ أسأل نفسى كثيرا : ألم تحب ؟! ، مَن يا ترى فتى أحلامها ؟!

ويسأل حمادة :

— ماذا تفعل لو صادفتها بصحبة شاب فى شارع بين السرايات ؟!

فيقهقه ويقول :

— أعمل مغفلا وكأننى لا أدرى ..

ويتساءل صادق صفوان :

— أليس علينا نحو أولادنا واجب التحذير والإرشاد ؟

— أمها تعرف واجبها تماما ..

وفى ذلك الوقت جمع طاهر قصائده وأصدرها فى ديوان عَنْونه « زائرات الحديقة » . ونال كل منا هديته وهنأناه من صميم قلوبنا ، وقرر حمادة أن نحتفل بالمناسبة فى العوامة فى ليلة من ليالى العمر . ورحب زملاؤه — وفى مقدمتهم اليساريون — بالديوان ، فنشرت عنه المقالات ، وظهرت صورته فى المجلات . وكثيرا ما يثنى على رئيفة كسيت بيت ماهرة ، وأمّ يقظة ، وزوجة محبة مخلصة ذكية ، تعرف كيف تهىء لزوجها أسباب الراحة والسعادة . ولا شك أنها تغيرت أكثر من المتوقع ، فخفّ وزنها أكثر مما يجب ، وظهرت فى وجهها أمارات السن ، ولكنها ما تزال تُعَد جميلة ورشيقة وفائقة النشاط .

ولكن هموم البلد غطت على همومنا الشخصية ، فانفجرت الخصومات الحزبية ، وامتلأت الساحة بالخصام ، حتى قال طاهر لصادق :

— اعتبرنى مثل ابنك إبراهيم رافضا لكل هذا العك !

على أى حال أصبح فينا — بفضل طاهر — شخصية عامة ، تصعد بخطى وئيدة إلى النجومية الأدبية . أجل إن صادق صفوان يود أن يعتبر نفسه شخصية عامة بما هو تاجر معروف ومن ذوى الأملاك ، ولكن الفن يضفى على أهله هالة متفردة . ترى ألم يؤثر ذلك فى الأرملاوى باشا وحرمه ؟! ، لم يبدر منهما

ما يبشر بذلك . وقد أحيل الباشا إلى المعاش وفتح عيادة للتحاليل الطبية فى وسط المدينة ، وكل الظواهر تقطع بأنه نسى ابنه تماما . أما طاهر فبالإضافة إلى الشِّعر والترجمة راح يكتب مقالة ساخرة أسبوعية كسبت له المزيد من القراء .

وصار إسماعيل قدرى أباً إذ أنجبت له تفيدة « هبة الله » ، وكانت ولادة عسيرة ، وتمت فى المستشفى اليونانى . وفاجأنا ذات ليلة بقوله :

ـــ سأدرس القانون من المنزل ..

وسررنا بذلك ، ووجدنا فيه ما يتناسب مع تفوقه القديم المتجدد مع الزمن . وسأله صادق :

ـــ هل رجعت إلى هدفك القديم ؟

ـــ نعم ، أنا لا أفرق بين الوطنية وبين الاشتغال بالسياسة ..

وانهمرت على ركن قشتمر الأخبار المثيرة ؛ مصرع أحمد ماهر ، حرب فلسطين ، مصرع النقراشى ، الحرب بين إبراهيم عبد الهادى وبين الإخوان ، عودة الوفد ، حريق القاهرة . كتب علينا أن نعايش الهموم ونتجرع الأحزان ونكظم الغضب أو نزفره سمَراً ونكاتاً ونوادر هزلية . ودخل الأولاد الجامعة وحتى هبة الله دخل الروضة . أما نحن فقد بلغنا الأربعين ، تلك العلامة المميزة ذات الطنين الأبدى . بلغ صادق قمة ثرائه . وحمادة الحلوانى أدرك الغاية فى معالجة الفراغ بالإفراط فى الطعام والشراب والمخدر حتى فاق طاهر فى وزنه . وبلغ طاهر منزلة فريدة فى عالَم القلم ، أما إسماعيل قدرى فقد حصل على الليسانس ، فاستقال من عمله فى دار الكتب وعمل فى مكتب محام وفدىّ . غير أن أهم الأحداث العائلية جرت فى الحريم أو من خلال الأولاد .

ففى بيت صادق صفوان الأول تفاقم مرض إحسان حتى اضطرت إلى ملازمة الفراش عاجزة تماما عن الحركة . وظل صادق يرعاها بكل ما فى وسعه

ولا ينسى على حد قوله لنا :

ـــ لم أعرف السعادة الحقيقية إلا بين يديها .

أما زوجه الثانية ليلى حسن فاستمرت فى ملاعبتها الشاذة معه ، تحاوره بين قطبَى اللذة والألم ، حتى تمزق تماما بين الرغبة فى الإبقاء عليها وتمنِّى الخلاص منها . يقول ويعيد أنه بقدر ما وُهبت من أنوثة بقدر ما أُفعمت بسم العنف ، متكبرة على غير أساس كأنما هى المتفضلة ، وعند الانفعال ينفث لسانها ألوانا كريهة من السموم ، وهو بدوره لم يعد يسكت فعلَّمته السب وما يندم على قوله أحيانا .

ويقول له حمادة الحلوانى :

ـــ حظك فى الزواج ليس كحظك فى التجارة والمال ..

فيقول متحسرا :

ـــ كانت بين يدى امرأة ولا كل النساء ، يا للخسارة يا إحسان !

واختل عقل ليلى أكثر بسبب عقمها فإذا بها تقول له ذات يوم :

ـــ أمِّن لى حياتى بكتابة عمارة باسمى ..

يا للمصيبة ! .. إنها تفكر فيما بعد موته ، وتذكره بالنهاية التى لا يحب أن يُذكره أحد بها . واستاء وحنق ، وآمن بأنها لا تفكر إلا فى ماله ، والواقع أن المال وتوابعه هى ما يستأثر باهتمامها فى المقام الأول . وقال لها بصرامة :

ـــ لله فى ذلك شريعة لا أحب أن أخرج منها ..

فصاحت به :

ـــ اعترف بالحقيقة وهى أنك لا تحب إلا ابنيك ..

وإذا نشب خلاف بينهما خاصمته ، فحتى التحية العابرة تنقطع ، وتتبعها المعاشرة ، ثم تقضى أكبر وقتها فى الخارج .

فقال إسماعيل آسفا :

ـــ هذا هو الجحيم .

وقال حمادة :

ـــ إنها فى حاجة إلى من يكبحها ..

فقال صادق :

ـــ ضقت بالحياة ، فهل أطلقها ؟

وسادنا صمت لم يخرقه إلا حمادة ، قال :

ـــ الحق أن البعد عن مثلها غنيمة !

وتساءل صادق :

ـــ هل فعلتُ ما أستحق عليه عقاب الله ؟

تساءل بنبرة المطمئن إلى ورعه وتدينه ، وتذكرنا بعض تصرفاته التجارية مما يُعد فى نظر التجار شطارة وحلالا ولكن الكثيرين يعتبرونه استغلالا ضارا للناس ، ولكننا تغاضينا عن ذلك وفاء له ورحمة به . وقال إسماعيل قدرى :

ـــ إذا أردت أن تسعد مع ليلى فأذعن لمشيئتها دون شرط ..

فقال بكبرياء :

ـــ مستحيل ، إنها مثل النار لا تشبع ..

فقال الآخر بحزم :

ـــ إذن فلا محيد عن الطلاق .

ووجد أنها لا تكف عن المطالبة بالعمارة ، فقال لها بهدوء مخيف :

ـــ ليلى ، الحياة معك لا تطاق :

فصاحت :

ـــ هذا ما يؤكده سوء حظى كل يوم .

فقال :

— إذن ليذهب كل منا إلى حال سبيله .

فصاحت بجنون :

— هذا أجمل ما سمعت منك .

وطلق صادق زوجه الثانية قبيل حريق القاهرة بأيام . وقد غرم لذلك غرامة لا يستهان بها ؛ ففازت بالأثاث ونفقة المتعة والنفقة المعتادة . ولكنه قال متعزيا :

— راحة البال أهم .

ولكنه أدرك فى الوقت نفسه أنه رجع إلى عهد الحرمان . وإلى جانب ذلك لم تخل حياته من بوارق سعادة ، فقد تخرج إبراهيم وبعده صبرى فى كلية الحقوق . والتحق إبراهيم بوظيفة فى بنك مصر بعد امتحان أعلن عنه وبسعي أيضا من رأفت باشا الزين . أما صبرى فقد قُبض عليه فيمن قبض عليهم من الإخوان . وأكد لنا صادق أن ابنه لم ينضم للجماعة ولكنه بدافع من تدينه تبرع لبناء جامع فعثر على اسمه فى كشف المتبرعين وعُد من الإخوان . ورغم أنه أُهين وضُرب ولكنه أُفرج عنه ، ووقفت فترة الاعتقال عثرة فى سبيل توظيفه ولو إلى حين . وثمة مفاجأة سارة سعدنا بها جميعا لا أسرة صادق وحدها . فقد صارح إبراهيم أباه برغبته فى الزواج من درية كريمة صديقه طاهر . وسعِدَ صادق بالخبر سعادة كادت تنسيه همومه ولو إلى حين ، وضمن له موافقة الأب على الأقل . وعند ذاك قال له إبراهيم :

— أنا ودريّة متفقان تماما ..

فأُخِذ صادق وتمتم :

— لقد جاوزت حدودك يا إبراهيم .

فتساءل إبراهيم بدهشة :

— لماذا يا بابا ؟

وصمت صادق طاويا صدره على تقاليده . وجاءنا مساء منبسط الأسارير على غير عادته فى الأيام الأخيرة . ونظر إلى طاهر عبيد بعينين باسمتين وقال :

— يا حضرة الشاعر ، محسوبك يطلب القرب منك ..

وهزنا الخبر هزة لطيفة ذكَّرتنا بمرور الأيام ، ولكن بأكبر قدر من الرفق وأقل قدر من الأسى . أما طاهر فضحك عاليا وقال :

— لى الشرف يا معلم صادق ، من زمن وأنا أتوقع هذا الطلب ، ولكنك آخر من يعلم ...

وعلت قهقهة فغطت على قرقرة النراجيل . والحق أن درية بنت ممتازة ، وقد استهواها فن الرسم فدخلت مدرسة الفنون الجميلة رغم تفوقها فى العلوم والرياضة ، ورغم اعتراض مامتها . ولما أتمت دراستها ألحقها والدها بعمل فى مجلة الفكر . وهى تماثل إبراهيم فى رفضه الواقع مع شىء من الميل إلى فلسفة اليسار ، ولكن غرامها بفنها فاق كل شىء . وقال حمادة :

— من حقك أن تفرح وسط أحزانك يا رجل يا طيب ، وعليك أن تتزوج أيضا فمثلك لا يطيق حياة العزوبية ..

فقال صادق :

— بل يجب أن أطمئن أولا على صبرى ..

وصبرى كان يسترد أنفاسه عقب محنته القاسية فى الاعتقال . ولما سُد فى وجهه باب الوظائف اقترح إسماعيل قدرى على أبيه أن يعمل معه فى مكتب المحاماة ، ولكن صادق حسَّن لابنه أن يفتح له فرعا فى شارع عشرة ، تمهيدا ليحل محله بعد ذلك فى تجارته ، وحتى لا تُصفَّى التجارة الناجحة بوفاته أو بتقاعده . وقرر صبرى أن يجرب نفسه فى المشروع الجديد ، وفتح له والده الدكان فى شارع عشرة عند نهايته المطلة على ميدان العباسية . ثم احتفل صادق بدخلة

إبراهيم ودرية بعد أن خصص لهما شقة فى عمارته الجديدة بشارع حسن عيد أمام مسكن إسماعيل قدرى . واستأجر طاهر شقة أخرى فى نفس العمارة له ولرئيفة وفرشها بأثاث جديد يناسب حالته الجديدة .

وفى أثناء تلك الفترة غير القصيرة تعرض حمادة الحلوانى لطوارق خفيّة متسللة من الهم ، صار بها فى النهاية صاحب مشكلة . عانى ذلك الحشاش البدين طارئا جديدا غير الخمول والذهول . قال لنا ذات ليلة :

ــ رغم كل ما يتهيأ لى من أسباب الراحة فإننى أضيق بالحياة أحيانا لحد القرف !

ووجمنا ، وطال صمتنا ، حتى قطعه صادق بلهجته الوعظية قائلا :

ــ أنت الوحيد بيننا الذى تحيا بلا عمل .

وقال له إسماعيل قدرى :

ــ حياتك يتمناها كل إنسان كحلم ، أما كواقع فهى شىء آخر .

فقال حمادة معاندا :

ــ دعونا من المحفوظات ، إنها حياة عظيمة ، ولكنها تحتاج إلى حلول جريئة ..

فقال طاهر عبيد :

ــ أفرغ طاقتك المختزنة فى نشاط جديد ، ما رأيك فى الرحلات ؟!

عز علينا أن نفقده ولو إلى حين ولكنه كان العلاج المتاح . وقرر الرجل أن يقوم برحلات متنوعة بادئا بالداخل ؛ تنقّل صيفا بين مواقع الساحل الشمالى ، وزار شتاء الأقصر وأسوان ، ورجع أحسن حالا ، ولكن ذلك لم يدم طويلا . وقال له إسماعيل قدرى :

ــ قم برحلات أُخَر فى الخارج ..

وهشَّ للاقتراح وعزم على تنفيذه ، ولكن التاريخ كان يُعِد لرحلة جديدة

فى حياة مصر ، فاضطر الرجل إلى أن يعدِل عن مشروعه .

وكان طاهر عبيد يتألق كفنان ، ويهنأ بأبوته إلى أقصى حد ، أما كزوج فقد خامرنا من ناحيته شك . بلغت رئيفة الأربعين أو جاوزتها بقليل ، ولكن العمر لم ينل من أحدنا كما نال منها ، بل قدَّر بعضنا أنها كانت أكبر مما حدسنا يوم زواجها . هزلت بدرجة كبيرة جردتها من كافة مزايا الجسد الأنثوى . وبرزت عظام وجهها فتغير شكلها وشحبت صورتها . أجل بقى الحب القديم كما كان فى الظاهر على الأقل ، وتبدى طاهر كعادته مرِحا ضاحكا ساخرا ، وتساءلنا : كيف يكون الحال مع الزميلات والمعجبات ؟! . وعلى أى حال فإن يكن ثمة وفاء فمرجعه إلى الأخلاق الطيبة لا إلى الغرائز الراضية . وفى تلك الأيام علم طاهر أن أباه معتكف فى فيللا بين السرايات لمرض خطير فى المثانة ، فأزاح عن صدره عُقَد السنين ومضى إلى الفيللا . رجع إليها كهلا بعد أن غادرها شابا فى ربيع العمر . وأحدث ظهوره هزة شاملة ؛ استقبلته إنصاف هانم بحرارة وقبَّلته ، وقادته إلى مخدع الباشا دون استئذان ، ورنا إليه الرجل ملياً وببصر ضعيف ، ثم أخرج يده المعروقة من تحت الغطاء فتصافحا طويلا حتى دمعت عينا طاهر ، وقال برقة :

ـــ شد حيلك يا بابا ، أرجو أن أهنئك بالسلامة فى المرة القادمة ..

فشكره بصوت ضعيف ثم سأله :

ـــ كيف حال أسرتك ؟

ـــ تود أن تحييك بنفسها .

فقال بصوت كالهمس :

ـــ أود أن أراها ..

وتمت الزيارة فى جو يعبق برائحة الفناء ؛ الباشا طريح الفراش يطوى الفصل الأخير من حياته الشامخة ، والهانم اشتعل شعرها شيبا وغاض من وجهها ماء الحياة .

وصحبته رئيفة ودرية وإبراهيم ، فبعثت درية بحيويتها وجمالها انتفاضة منعشة فى الجو القاتم ؛ ضمتها الهانم إلى صدرها بحنان ، وأبقى الباشا يدها فى يده طويلا ، ولبثوا فى الفيللا حتى تناولوا الغداء . وبعد أيام أسلم الأرملاوى باشا روحه ، فرثته الصحف رثاء لائقا وودعته العباسية فى جنازة كبيرة . ودعت إنصاف هانم القللى ابنها وزوجته وحفيدتها وزوجها للإقامة معها فى الفيلا . ولم يترك الباشا من العقار إلا الفيللا وكمية محترمة من الأسهم والسندات وقليلا من المال السائل ، ووزعت تركته بين الهانم وطاهر ونحية وهيام . وأصبح لصديقنا صادق صفوان قصران يتردد عليهما بين آونة وأخرى ؛ قصر الزين وقصر الأرملاوى ، وكان يُسرّ بذلك دون خفاء .

أما إسماعيل قدرى فقد أثبت كفاءة غير عادية فى مكتب المحاماة ، وقدمه أستاذه إلى نخبة من رجال الوفد ، وميَّزته ثقافته الشاملة فاحتل منزلة محترمة فى القلوب ، وشهد كثيرا من الندوات فى جمعيتى الشبان المسلمين والمسيحيين واشترك فى المناقشات ، وبُشر بلمعان قريب ولم نشُك فى أنه بالغٌ هدفه طال الزمان أو قصر . ولما جرت انتخابات عام ١٩٥٠ قال له أستاذه :

— أتنبأ لك بأنك ستكون من المرشحين فى الانتخابات القادمة !

وعند إلغاء المعاهدة تسنمنا ذروة النصر ، وعند حريق القاهرة هوينا إلى الحضيض . وتعاقبت الأحداث وكأنما يوجهها أبلهٌ أو مجنون ، فعلق عليها طاهر عبيد بقوله :

— ما هذه بدولة ولكنها سيرك هزلى ..

ونحن على حال كئيبة من المرارة والسخرية والتقزز ، هلَّ علينا يوم ٢٣ يوليو كالسحر المبين . شملتنا صحوة طاغية وتتابعت الحوادث كالأحلام ، فرحل الملك والإقطاع والألقاب ، وبرز الفقراء والضائعون من القاع فتربعوا على العرش ،

وأصبح كل مستحيل ممكنا . ولم يعد لنا من حديث فى ركننا العتيد بقشتمر إلا حديث الحركة المباركة . هرع صادق إلى قريبه العجوز الزين باشا أو السيد رأفت الزين ليستمد منه الأخبار ، وراجع ما تبقى له من وفدية قديمة ، ولكنه لم يسعه إلا أن يقول :

ــ حقا إنها حركة مباركة !

لكن صوته يخونه ، وابتسامته تخونه ، ونظرة عينيه تشى بالانقباض والقلق .

ومضى حمادة الحلوانى على عادته ، ينبهر يوما بقرار فيحتدم حماسه وكأنه أحد الضباط الأحرار ، ثم تترامى إليه معلومة أو إشاعة فينقلب عدوا لدودا ويقول :

ــ ما هم إلا عملاء أمريكا !

وأما إسماعيل قدرى فقد رحب عقله بالأفعال ورفض قلبه أصحابها . لم يتنكر لوفديته قط ، وساءه التفاف الشعب حول الحركة ، واستعرت بين جوانحه معركة بين عقله وقلبه ، وقال بصراحة :

ــ كان يجب أن يجعلوا من الوفد قاعدة لهم !

ولا شك أنه وجد آماله الشخصية تداس تحت أقدام الحركة الغليظة العسكرية . العجيب حقا هو حماس طاهر عبيد ! . لأول مرة فى عشرتنا الطويلة نراه متوهجا متألقا كالكهرباء ، يرقص طربا ويتغنى بالمجد ، ويهب قلبه وعقله بلا تحفظ . يقول :

ــ هذا حلمى الذى لم أعرف تأويله إلا اليوم !

ثم بارتياح عميق :

ــ ودرية معى على طول الخط ..

وبهذه الروح مضى شِعره ينبض فى مجلة الفكر .

وانطلق قطار الثورة من محطة إلى محطة ، يحقق انتصارات لا حصر لها ، ويذلل

العقبات ، ويطوى التحديات .

وما زال صادق صفوان يكابد القلق الذى يأبى أن يفارقه . وشد ما جزع لما حل بأسرة الزين باشا ، فقد التهم الإصلاح الزراعى الجزء الأكبر من أراضى زبيدة هانم ، كما توقف نشاط الزين فى البورصة ، ولم يعد للأسرة من مورد إلا إيجار المتبقى من الأرض الذى ضمر أيضا بحكم القوانين الجديدة . وحتى ابنه محمود استقال من السلك السياسى وأقام فى إنجلترا مهاجرا أبديا . ويقول صادق :

ــ لست من الإقطاعيين ولكننى من ذوى الأملاك ، وقد يأتى دورنا ، ألا ترون أن الثورة عدوّ سافر للناجحين ؟!

دائما وأبدا يشعر بأنه مُطارد ، وأصبح فى حيرة وأىّ حيرة من أرباحه المتصاعدة فيقول :

ــ لا أدرى ماذا أفعل بمدخراتى ، من الحماقة أن أستثمرها فى البناء ، ومن الغباء أن أودعها فى البنوك ، ومن الجنون أن أبقيها فى بيتى !

وقال لابنه إبراهيم يوما :

ــ لعل بالك قد ارتاح الآن !

ولكن إبراهيم أجابه :

ــ ألم تسمع عن استغلال النفوذ ؟ ، ألم تبلغك أنباء المخابرات ؟ ، ألم تشم رائحة الفساد ؟!

فقال له حانقا :

ــ كأنك تحلم بثورة جديدة ، ألا تكفينا ثورة واحدة ؟!

وظن صبرى يوما أنه صاحب الثورة باعتباره إخوانيا ، فلما انقلبت الثورة على الإخوان قبض عليه فيمن قبض عليهم وقدم إلى المحاكمة ، غير أنه كان من القِلة التى برئت ساحتها ، وفقد ثقته فى كل شىء ، وفى اللحظة المناسبة هرب إلى

السعودية والتحق بعمل مناسب فى شركة مقاولات . وقد شق الفراق علَى صادق وإحسان ولكنه تعزى بأن ابنه وجد فى السعودية مستقرا وعملا وأمنا بعيدا عن مصر التى أصبح يحكمها — فى اعتقاده — قانون الغاب . ورغم همه المقيم وَالَى ولىّ نعمته بحبه وإخلاصه وزياراته المتلاحقة . وكان الباشا القديم قد نيف على الثمانين وتدهورت صحته ولزم حجرته ، فوهنت ذاكرته وذبلت شعلة اهتمامه بأى شىء ، بخلاف زبيدة هانم التى صمدت لتقلب الحظوظ . وعرض صادق عليها أن يمدها بما ينقصها . قال :

— اسمحى لى أن أرد شيئا من جميلكم الذى لا ينسى .

وقبلت معونته قائلة :

— إنك ابنى مثل محمود الذى فقدته إلى الأبد ..

وأخذت السرايات فى الاختفاء وحلت مكانها العمائر والسكان الجدد فتساوت العباسية شرقيُّها وغربيّها لأول مرة فى التاريخ . وذات ليلة أراد حمادة الحلوانى أن يخفف من قلق صادق ، فقال له مازحا :

— إليك هذا البيت ...

ما مضى فات والمؤمل غيب   ولك الساعة التى أنت فيها

اتلِه ثلاث مرات قبل غيار الريق !

فقال صادق بفتور :

— ولكنى سأظل أفكر فى الفلك المفترس !

ولعل حمادة الحلوانى أيضا لم يبرأ خياله من الفلك المفترس . ما زال يحتفظ بشقة خان الخليلى والعوامة والسيارة ، ولكنه كان يتساءل كثيرا ؛ ترى ماذا تخبىء لنا أيها الغد ؟ . وكلما ناوشته أفكار السوء لف سيجارة حتى أصبح يتعاطاه على طول اليوم ، مستمدا من سحره استهانة ولا مبالاة . ويقول ساخرا :

— من فضل الثورة أنها تمدنا بعجائب لا يعيش معها الملل .

أو يقول :

— المسألة واضحة كالشمس ، مجموعة من الفقراء ثارت على الأغنياء لتنهب أموالهم وترمى إلى الشعب ببعض الفتات ..

وتلقى أول إصابة مباشرة حين التأميم ، فقد أُمِّم مصنعهم وانقطع دخله الثابت . ولم يهز ذلك ثراءه الواسع ، ولكنه ضاعف من مخاوفه كما أكد إدمانه . وقال معلقا وساخرا :

— الله يرحمك يا بابا ، شد ما أنّبتنى لكسلى .. وأشدتَ بأخى لعلوّ همته .. فانظر أينا كان الحكيم ..

وقد مرض بكبده وعولج منه ، ولكنه امتنع نهائيا عن تعاطى الخمر ولم يكن من عشاقها . وحين التأميم بلغ الخمسين من عمره فأخبرنا بأنه لم يعد ينسجم مع أى امرأة جميلة ، وأنه يدقق فى الاختيار ليحقق لمزاجه ما يريد . ولأول مرة باتت ذاكرته تخونه أحيانا فجزع لذلك وقال :

— الموت يبدأ بالذاكرة ، وموت الذاكرة أقسى أنواع الموت ، ففى قبضته تعيش موتك وأنت حىّ ، وتُرَد وأنت لا تدرى إلى الأمِّية !

ولا شك أن سحابة من الأسى نشرت جناحيها فوقه لما حل بأخيه وزوج أخته أفكار الذى كان من كبار الملاك الزراعيين ، ولِما جرى على الوفد حزبِ أبيه ، والبطولات التى أطلت على الدهر فى شموخ والتى تتحول من خلال أبواق الدعاية إلى تلال من الخرائب . وقال :

— ضايقنى يوما أننى آخذ دون أن أعطى ، اليوم أندم على الندم ، وخير ما يفعله الإنسان فى هذه الأيام أن يوطن نفسه على استقبال الموت ، فإذا وقعت شدة وجدنا فيه الفرج ..

أما إسماعيل قدرى فقد عجب لسعى الدهر بينه وبين آماله . كلما ابتسم له المستقبل وثبتْ الحوادث فطمست ابتسامته ، ذهب المجد وتولى ، لكن حظه أفضل من كثيرين من الوفديين الكبار الذين تمزقوا بين الإهانة والسجن ، ونشاطه فى المحاماة يدرّ عليه دخلا لا بأس به ، وأسهمه ما تزال فى صعود بالإضافة إلى دخل زوجته . ولم يغب عن عقله الموضوعى ما أنجزته الثورة للوطن والشعب حتى يخيل إليه أحيانا أنه مواطن فى دولة عظمى ، أما قلبه فلم ينفتح للثورة أو رجالها وتابع فى كل حين سلبياتها حتى قال لنا يوما :

— إنها ثورة ذات أهداف جليلة ولكن القدر عهد بها إلى شلة من قطّاع الطرق .. ولم يعد يجد عزاء فى تفيدة التى بلغت السنين حين بلغ الخمسين . ولم تكن تسلِّم بالواقع أو تستسلم للهزيمة فأنفقت عن سعة على طعامها المختار ورياضتها اليومية ، والموضة التى تتنافر مع سنها ، وتبالغ فى التبرج لدرجة تثير الابتسام . واعترف لنا يوما قائلا :

— هيهات أن أنسى فضلها ولكن رغبتى فيها تموت ساعة بعد أخرى ..

فسأله حمادة الحلوانى مازحا :

— لعلك تحن من جديد إلى غابة التين الشوكى ؟!

الحق أنه ركز اهتمامه الأول على هبة الله الذى جاءت الثورة وهو ابن ست سنوات ، ويوشك اليوم أن ينتهى من المرحلة الابتدائية ، ويبشر نموه بعملقة فى الجسم وقوة الملامح وتفوق فى الرياضيات . ويقول إسماعيل ضاحكا :

— إنه ابن الثورة مائة فى المائة وأنا مضطر إلى تحمله دون تذمر ، وأتحاشى تصحيح أى معلومة له إيثارا للسلامة ..

ومرة طرح سؤالا بلا مناسبة على الإطلاق ، قال :

— للحياة هدف وهذا قد نخلقه بأنفسنا ، ولكن للكون أيضا هدف فما هو ؟!

وغرقنا ليلتها فى حوار طويل عن هدف الحياة وهدف الكون فنسينا همومنا الشخصية وإلى حين .

ومن بين أفراد مجموعتنا الفانية يبزغ طاهر عبيد كالقمر فى تألقه وينطلق فى طريق النجاح كالشهاب . من أول يوم دُعى إلى المشاركة فى تحرير مجلة الثورة ، لماذا ؟ . لم يكن من المنافقين ولا أهل الثقة ، لكن شِعره الشعبى القديم بشر بالثورة قبل أن توجد . وزكّاه أيضا أنه عرف ببعده عن الأحزاب ، وسرعان ما توثقت العلاقة بينه وبين الضباط المتولين شئون الثقافة ، وهو من ناحيته ، وبتلقائية وإخلاص ، كرَّس شِعره للثورة ، فما من إنجاز أو نصر أو موقف نبض به قلب الثورة إلا وأعطاه المعادل الشعرى فى أجمل صورة ، ثم سرعان ما يترجم إلى غناء تردده الإذاعة والتليفزيون فى حينه . وسأله صادق صفوان الذى لا يفيق من القلق :

ـــ ألا تستطيع بمنزلتك الغالية عندهم أن تدفع عنا البلاء إذا حمَّ قضاؤه ؟!

فضحك عاليا وقال :

ـــ لا يدفع ذلك شعر أو نثر ..

وقال حمادة الحلوانى بأسف :

ـــ من المحزن وغير المفهوم أنك مخلص فيما تقول وتكتب ..

وقال إسماعيل قدرى بمرارة :

ـــ شِعر جميل ومضمون زبالة !

ويقول طاهر جاداً :

ـــ صدقونى إن مصر لم تعتلِ هذه الذروة منذ عصورها المجيدة كما أنها لم تشهد طيلة تاريخها مثل هذا الرجل المعجزة ، وإنه لعظيم مَن يستطيع منكم أن يعلو فوق خسائره الذاتية ليلحق بركب التاريخ فى مسيرته الشامخة ..

وفى فيللا الباشا الراحل ينشب نزاع ودّى أحيانا بينه وبين مامته أو بينه وبين إبراهيم . يقول لإبراهيم :

ـــ أتنتظر حقا ثورة أخرى ؟ .. ما أنت إلا محترف ثورات !

فيقول إبراهيم متحديا طاهر ودرية معا :

ـــ لقد تغير المنظر ولكن الممثلين لم يتغيروا .

ـــ لا تخلو ثورة من انتهازيين ولكن بحسبها أن زعيمها رمز للكمال ..

ـــ إنه دكتاتور يا عمى ..

ـــ بل إنه المستبد العادل .

وكانت درية سعيدة رغم فوات عشر سنوات على زواجها دون حبل ، وتجلت موهبتها فى الرسم إلى جانب فتنتها الشخصية .

وتحسنت حال طاهر المادية جدا فأتاحت له الفرصة لممارسة ما جبل عليه من كرم أو إسراف إذا شئت ، فهو على حبه المال لا يسمح له أبدا باستعباده .

وجرت الأيام تطير بقوم وترزح فوق آخرين . وظل ركننا بقشتمر عامرا بوجودنا فلم ننقطع عنه إلا فترة قصيرة حينما قرر صاحب المقهى تجديده . غيَّر أرضيته ، وطلى الجدران بلون ناصع البياض ، وأحل أثاثا جديدا مكان القديم ، وعنى بالحديقة فزرع الياسمين فى أصل سورها وزيَّن أركانها بأُصُص الورد والقرنفل ، ورمم دورة المياه ، وابتاع طاقما جديدا من النراجيل ، وأضاف إليها وحدتين ، واحدة لتقديم الدندورمة والأخرى ـــ فرن ـــ لتقديم الكوفتة . وكالعادة لا نتخلف عن مجلسنا فى رحاب صداقة لا تتغير ، ولعل ما ساعدنا على ذلك بقاؤنا فى حى العباسية رغم ما طرأ عليه من تقلبات الدهر ، فلم ينتقل منها إلا حمادة ، ولكن سيارته كانت تحمله إلينا كل مساء ، وأبَى أن يستبدل بنا قوما آخرين . أجل ذهبت فى أدراج التاريخ عباسيةُ الزمان الأول ، بالهدوء والخضرة

والسرايات والترام الأبيض ، وانتشرت العمائر ، وقامت الدكاكين على الجانبين ، وفاض الحى بسكانه ، واكتظت الشوارع بالصبية والسيارات الخاصة والعامة ، إنه الزحام والضوضاء والأنفاس المتلاطمة ، ولكن لم يجر هجرها لأحدنا فى خاطر ، ولا تصورنا أنه يمكن السمر فى غير قشتمر . ولم يبق من معارفنا القدامى أحد ؛ انتقل إلى الأحياء الأخرى من انتقل ، وانتقل إلى جوار الله من جاءه الأجل ، وازداد شعورنا الحميم بالمودة ، ووجدنا فى صداقتنا سلوى الوجود وحلاوته ، وغلب علينا الاستسلام للواقع ، وتخلصنا من كثير من رواسب الماضى ، واجتاحنا ما يشبه النعاس الهنىء والحلم العذب حتى انتفضنا قائمين على صوت انفجار كالبركان فى يوم من الأيام عجيب اسمه ٥ يونية . دهشة وتساؤل وتعجب ، حيرة وعدم تصديق ، ثم دهشة وتساؤل وتعجب ، تجرع لواقع لا مفر منه ، كيف ؟! .. لا ندرى ، لماذا ؟ .. لا ندرى ، ثم سيل ينهمر من الحواديت ، وفيضان من النكت ، ومضطرب بلا حدود لعواطف متناقضة ، من أقصى الحزن إلى أقصى الفرح ، ولكن جرثومة الكآبة استقرت فى أعماق كل نفس .

وربما تنفس صادق صفوان بارتياح لأول مرة منذ عام ٥٢ ، خجل أن يعلن ارتياحه ، وربما لم يخلُ ارتياحه من كدر ، ولكن فضحته عيناه ، وفلتات من تعليقاته ، وترديده للنكت المنتشرة كالجراد . وسرعان ما زار رأفت باشا الزين ، فلم يجده قد استوعب ما حدث لتماديه فى شيخوخة متدهورة ، أما زبيدة هانم فأشارت بأصبعها إلى السماء وتمتمت :

— إنه موجود .

ولكن الباشا لم يعمر بعد الهزيمة إلا أياما ومات إثر أزمة قلبية ، ثم تبعته الهانم قبل أن يتم الأربعين ، وقريبا من ذلك التاريخ توفِّيت ست زهرانة والدة صادق وشُيِّعت جنازتها من الشقة التى انتقلت إليها بعد أن حوّل صادق بيتهم إلى عمارة .

ولم تنتزع هذه الأحداث صادق من انفعالاته بالحوادث العامة . ولم يعد يشعر بحرج فى الإفصاح عن مشاعره فقال لنا ساخرا :

ـــ أسد علىّ وفى الحروب نعامة !

وبصفة عامة لم يعد يخشى الفلك المفترس بعد أن نزعت الحرب أنيابه .

وتراوح حمادة الحلوانى كعادته بين المتناقضات ؛ ليلة ينوح راثيا لحال الوطن ، ويتألم غاية الألم للكرامة التى تمرغت فى التراب ، وليلة يسبق صادق إلى الشماتة والهزل فيقول :

ـــ ألم يقل إنه علَّمنا العزة والكرامة ؟ ، اشبعوا عزَّة وكرامة !

وغضب إسماعيل قدرى غضبة مجللة بالحزن العميق لما نزل بوطنه الجريح ، وراح يردد بانفعال شديد :

ـــ لا بد من رد اللطمة بمثلها على الأقل ..

ثم يتساءل فى حنق :

ـــ كيف لم يتلاش نظام الحكم حتى الآن ؟! ، لو أن هذا الرجل عميل مأجور ما استطاع أن يفعل بنا أكثر مما فعل ..

ولكن لم يُصدَم أحد كما صُدم طاهر عبيد ، كأنما جن جنونا أو مات موتا . ويتنهد هامسا :

ـــ ليتنى مت قبل ذلك .

وأراد حمادة أن يخفف عنه فقال :

ـــ ما من أمة يخلو تاريخها من كوارث .

فقال بصوت منهزم :

ـــ ولكن هذه هى كارثة الكوارث .

فقال مدفوعا بالشفقة عليه :

ـــ طالما أننا أحياء فلا مفر من الأمل .

فتساءل فى شك :

ـــ أى أمل ؟

ـــ الأمل فى الأبناء .

فتساءل فى حيرة :

ـــ أبناء الهزيمة ؟

وسأل صادق :

ـــ هل كفرت بالبطَل ؟

فصمت مليا ثم قال :

ـــ أعتقد أنه يموت الآن وأنا أموت معه ..

وازدادت رغبتنا فى التلاق رغم أنه لم يعد يعدنا بتسلية صافية ، لم يعد لنا إلا حديث واحد ثقيل ، وجبة سياسية حامضة نتام وبقاياها المرة ممتزجة بِرِيقِنا . وقلَّ الضحك وربما فزعنا إلى التأمل والتفلسف . وينقضى بقية العام ويتبعه العام التالى ونحن نمضى على وتيرة واحدة وندنو من الستين .

وذات ليلة قال لنا صادق صفوان :

ـــ حدثت زيارة هامة فى الدكان ، جاءتنى جارة مع كريمتها لشراء بعض الأشياء ..

فأثار فى نفوسنا الخامدة اهتماما ، وحدسنا وراء الخبر مفاجأة ممتعة . وتمتم صادق :

ـــ ست أمونة حمدى وكريمتها سناء إبراهيم ..

ولم تخل الأسماء من مضامين نعرفها ؛ فست أمونة حمدى مطلقة فى الأربعين مقبولة بدرجة لا بأس بها ، أما سناء فبنت ثمانية عشر ربيعا وذات جمال موفور .

وهما يعيشان فى كنف الأب — جد الفتاة — عَلِى بركات وحرمه ست خديجة علام ، وهو موظف على قد حاله . وقال حمادة الحلوانى :

— ست أمونة امرأة مناسبة لرجل فى السنتين ..

فقال صادق رافعا حاجبيه :

— ولكن عينى ثبتت فوق سناء ..

فقال إسماعيل قدرى :

— إنها يمكن أن تكون حفيدة لك ..

فقال محتجا :

— العمر لا يقاس بالسنين .

فقال طاهر :

— فارق العمر كبير جدا ..

— إنها تذكرنى بإحسان فى قمة رونقها ، تفاحة أمريكانى ، حيوية وذكاء ..

فقال إسماعيل :

— كابدتَ الفشل قبل ذلك مرتين ، وفى كل مرة توارى سوء الحظ وراء الفشل ، أما هذه المرة فإنك تمضى باختيارك ..

فقال صادق بإشراق :

— ويجىء الفرج من حيث لا تحتسب ..

وتساءل طاهر :

— هل ترحب الأم وأسرتها بعريس فى الستين لصبية فى الثامنة عشرة ؟!

فقال حمادة :

— الرجال يوزنون اليوم بالقرش أكثر من أى وقت مضى ، والفتاة تعيش فى جو فقر فى كنف جدها ، فعريسنا يعتبر لُقطة ..

فقال صادق :

ـــ خُيل إلىّ أن الأم جاءت تعرض نفسها وكريمتها لأختار ما يناسبنى ..

فقال طاهر :

ـــ فاخترت ما لا يناسبك ..

وقال إسماعيل :

ـــ اعرف لرجلك قبل الخطو موضعها ..

فابتسم صادق ساخرا وقال :

ـــ ما أجدر أن نوجه هذه الحكمة لبطل ٥ يونية ، أما أنا فإنى واثق من نفسى ، طال عذابى مع العزوبة والعفة والله أعلم بحالى ..

ولم يُضع وقتاً ، فسعى سعيه ، وصادف القبول . وغلب علينا الفتور لحرصنا الأكيد على سعادته وتمنّينا أن تكذِب الظنون . وكعادته قام هو بكافة التكاليف ، واختار لمقامه الجديد شقة فى عمارة جديدة بميدان الجيش ـــ ميدان فاروق سابقا ـــ وبالغ فى الكرم ليغطى على نقصه وليستمتع بحياته تعويضا لها عما ذاقت من خوف حيال الفك المفترس . وهمس إسماعيل بعد أن خلونا إلى أنفسنا فى طريقنا إلى بيوتنا :

ـــ نحن فى زمن اللامعقول فلا تدهشوا لشىء !

وكأنما كان يمهد بقوله هذا لما طرأ على حياة حمادة الحلوانى من تغير غير متوقع . لم يعد يقتصد فى شكواه من الفراغ والملل . قال لنا :

ـــ إليكم صورة صادقة عن حياتى ، أنا كرجل يتثاءب بانتظام فى انتظار نوم لا يجىء ..

ويقول مقطبا :

ـــ كل يوم يبدو طويلا ثقيلا لا جديد فيه .

وقال وهو يردد ناظريه بين طاهر وإسماعيل :

ـــ الضجر هو سرطان الروح ..

وتساءل صادق :

ـــ ما جدوى دائرة المعارف إذن ؟

فهز منكبيه استهانة وقال :

ـــ حتى السطول بات سوداويا ، ولا أجد شيئا من الراحة إلا فى قشتمر ..

وفى غمار استعداده للاحتفال ببلوغه الستين فاجأنا بقوله :

ـــ يا رجال ، زوجونى .. !

فضحكنا طويلا ، ولكنه قال بجدية :

ـــ إنى أعنى ما أقول ، زوجونى ، أريد زوجة !

وصمتنا نفكر حتى هتف صادق :

ـــ هذا ما تنبأت به ..

فقال حمادة :

ـــ المسألة لا تعدو محاولة لملء الفراغ .

وقال صادق مؤمّنا أو مجاملا :

ـــ أنت رجل تعتبر لقطة عند أكرم الأسر !

هذا كلام يقال ، أما الحقيقة فإن سمعته السيئة كانت أشهر من ٥ يونية ؛ ما من أسرة إلا وتراه مثالا للرجل المنحل الحشاش الفاسق ، بالإضافة إلى شيخوخته . بنات اليوم غير بنات الزمان الأول ، ومن النادر أن تتكرر ظروف سناء حرم صديقنا صادق صفوان . وكل واحد منا سعى من ناحيته فلم يلق إلا الرفض ! . حتى قال له صادق بطيبته المعهودة :

ـــ ما رأيك فى حماتى ؟ .. إنها مقبولة جدا وأعتقد أنها توافق ..

فقال حمادة ساخرا :

ــ أصوم ثم أفطر على بصلة !

وهيج الرفض المتكرر غضبه فثار كبرياؤه وقال :

ــ المحترفات خير من المصونات !

فوجمنا جميعا ، وقال له صادق :

ــ اتئد ولا تلق بنفسك إلى التهلكة .

فقال باستهانة :

ــ لم يَخبُرْهن مثلى أحد .

وانطلق فى طريقه بإصرار فاستأجر شقة فى الزمالك وأثثها حتى جعل منها متحفا ، ودعانا إلى شهود عرسه على مائدة عشاء فى الأوبرج . وجدنا العروس امرأة فى منتصف الحلقة الرابعة ، ريانة الجسم ، حسنة الوجه ، لم يفلح ثوب الزفاف فى مداراة ابتذالها ، ونطقت نظرة عينيها الثقيلة بالخبرة والمزاج . قلنا إن حياته المتحررة ما بين خان الخليلى والعوامة لا تتنافر مع أصله بقدر ما تتنافر معه هذه الحياة الشرعية الزائفة ، ولو قامت على الحب لوجدنا له عذرا ولكننا تصورنا أنها لم تقم إلا على العناد والكبرياء . أما هو فأكد لنا ــ فى قشتمر ــ أنها أفضل من الأخريات ، وأنها تنحدر أيضا من أسرة طيبة ! . وما وسعنا إلا أن ندعو له بالتوفيق والسعادة .

وببلوغ إسماعيل قدرى الستين حقق فى المحاماة بمكتبه الذى استقل به نجاحا مرموقا . وناهزت تفيدة السبعين فانهزمت أمام العمر واستسلمت للواقع وراحت تعانى من دوالى الساقين والصداع النصفى . وتخرج هبة الله مهندسا فى الرابعة والعشرين من عمره ، وبقلب حطمته الهزيمة وانتكاسة البطل فحقق حلما راوده من قديم وهو الهجرة فهاجر إلى السعودية . وجزعت تفيدة ولكن

إسماعيل قال لها :

ـــ لست دونك فى النكد ولكن لعله يجد فى المال عزاء ..

ولم يُنسه عمله ولا نجاحه أحزانه السياسية ولا هزيمة وطنه ، وانضم إليها ذبول زوجته وهجرة ابنه . ولاحظنا أنه مال فى تلك الفترة إلى الحديث عن الروحانيات وعجائب الباراسيكلوجى . حقا لقد مر بها قديما فى سياحته الثقافية ، كما أن جولات حمادة الثقافية المتضاربة لم تخل منها ، ولكن إسماعيل وجد فى أقوال المتصوفين سحرا جديدا ، حام حوله ، وثمل به ، واتجه نحو قبلته كملاذ من عوالج قلبه . وقال صادق ببساطة :

ـــ اعترف بأنك ترجع إلى الدين .

فقال له متأففا :

ـــ لا تبسّط الأمور فتفقدها مغزاها ..

وقال طاهر عبيد :

ـــ الليالى حُبالَى بالعجائب ، والظاهر أن سلسلة الهزائم لا نهاية لها !

وبدا إسماعيل حائرا بين كبريائه وحنانه .

أما طاهر عبيد فقد حزن على الزعيم أكثر مما حزن الزعيم على نفسه . وتلا علينا ذات مساء قصيدة رثاء تقطر حزنا ومرارة وسخرية من النفس ، ولم يسمع القصيدة أحد سوانا . ولم تعد الأجهزة تردد أغانيه ، فهى أغان لا تُسمَع إلا فى جو النصر . واعترف لنا ليلة قائلا وموجِّها حديثه إلى إسماعيل بالذات :

ـــ زوجتى فى حال تفوق فى السوء زوجتك ..

فقال إسماعيل بمرارة :

ـــ أعطيَتا خير ما عندهما .

فقال بقسوة :

ـــ أصبحت أعافها ..

فقال إسماعيل ساخرا :

ـــ كل شيء يُعاف في النهاية .

وقال طاهر شِعرا كثيرا يفيض يأسا وحزنا وتشاؤما . وتأثر في بعضه تأثرا واضحا بفن العبث ، ولم ينشر شيئا مما يمكن أن يسيء إلى البطل الجريح ولو من بعيد . ويقول أحيانا قابضا على أي خيط من الأمل :

ـــ ها هو يطهر الثورة من سلبياتها ويعيد بناء الجيش ..

فيقول إسماعيل ساخرا :

ـــ سيزيف يصعد الجبل من جديد .

لم يعد يرد على السخرية بعد أن انكسرت نفسه وانهزمت كبرياؤه .

ولما رحل الرجل عن دنيانا رحيله المفاجئ تلقى الضربة القاضية . وقال :

ـــ دعوني أردد مع المؤمنين ـــ ولست منهم ـــ كل شيء هالك إلا وجهه .

ولم يخفِ صادق صفوان فرحه فقال :

ـــ هذا خبر أمتع من شهر العسل .

وقال حمادة ساخرا :

ـــ موته يعتبر من أمجد أعماله .

أما إسماعيل قدري فقال :

ـــ هرب في الوقت المناسب تاركا الطوفان لمن يخلفه .

واندمج صادق صفوان في حياته بطمأنينة جديدة ، وقال لنا :

ـــ أنا متفائل بالرئيس الجديد .

وسعد بسناء سعادة شاملة ، وشعر بأنه ملك الدنيا والدِّين ، ربما لم تكن سناء بالبساطة التي تمناها ، فلم تكن صورة طبق الأصل من إحسان . وكانت حصلت

على الثانوية العامة قبل زفافها مباشرة . وفى عز الحب واللهو قالت له :

ـــ أود أن أكمل دراستى !

فانزعج وقال لها :

ـــ أنا لم أكمل دراستى بعد البكالوريا إيمانا منى بالعمل ، افعلى مثلى وكرِّسى حياتك لعملك كست بيت .

فقالت برقة :

ـــ كان حلمى دائما أن أكمل دراستى .

ـــ لا معنى لذلك ألبتة .

ـــ كل بنت تفعل ذلك اليوم .

ـــ أهو تقليد أعمى ؟!

ـــ أبدا ولكن للعلم قيمته .

ـــ إنه ليس أهم من كونك زوجة وعلى وشك أن تصيرى أما .

فقالت بما اعتبره عنادا ضايقه :

ـــ بعض طالبات الجامعة متزوجات .

فقال بحدة غلبت على حبه وسماحته :

ـــ لا تتصورى أبدا أنه يمكن أن أوافق على التحاق زوجتى بالجامعة واختلاطها بالطلبة !

فأصرت على التساؤل :

ـــ ألا تثق فىّ ؟

ـــ كل الثقة ، ولكن كرامتى لا تسمح بذلك .

وخطر له أنها لم توافق على الزواج منه إلا تحت ضغط أهلها وظروفها القاسية ، فقال بحزم :

— ليكن مفهوما أننى لن أوافق على ذلك .

فلاذت بالصمت مغلوبة على أمرها ، وحاولت فيما بعد أن تقنعه بإكمال دراستها بالانتساب من الخارج ولكنه لم يرتح لذلك أيضا ، وتذكر ما جرَّه عليه لينه مع ليلى ، فقال بحزم :

— ولا هذا ، وما أوله شرط آخره نور !

أدركنا أن الدرس الذى لقنته له ليلى لم يُمْح من وجدانه ، وطاب لنا أن نتخيل صديقنا الدمث وهو يمثل دور الرجل الأسد ، وقال له إسماعيل قدرى :

— فى كل خرابة لك عفريت .

فقال بثقة :

— ولكننى قتلت هذا العفريت فى قمقمه .

ولم يوافقه أحد منا على أسلوبه ولكننا تجنبنا تكدير صفوه بمعارضتنا ، وقد أثبتت له أنها ست بيت نشيطة بقدر ما هى جميلة . وأدركنا أنها تضحى بآمالها أن ترجع مرة أخرى إلى ركن الذل فى بيت جدها ، خاصة وأن أباها لم يظهر فى الصورة قط بما يقطع بتفاهته أو عدمه . وفى أكثر من مناسبة راح صادق ينوه بحيويتها ونشاطها ويُرجع الفضل فى اكتشاف مزاياها إلى حزمه . وقال :

— ولم أستطع أن أحول بينها وبين مكتبتى ، فوقت فراغها كله تنفقه فى القراءة ، ولم أجد فى ذلك من بأس ، ولكنها قالت لى مرة : إن المعرفة أهم من المال نفسه . ولم أرتح لقولها ، ولولا الحياء لذكَّرتُها بما قدمه لها مالى مما يعجز عنه علم الدنيا والآخرة ، وقلت لها : إن رجل المال أهم رجل فى المجتمع ، وأن كثيرين من المثقفين يعجزون عن إسعاد زوجة ، بل ربما عن الزواج أصلا ..

وضحك حمادة الحلوانى وقال ساخرا :

— ما أعجب أن تعاشرنا العمر كله ويكون لك هذا الرأى !

فقال بنبرة الخبرة والحكمة :

ــ للنساء لغة خاصة لا يجوز التحدث إليهن بسواها ..

وبقدر ما تمنينا له السعادة بقدر ما ساورنا الشك فى توفيقه حتى النهاية . وأنجبت له سناء بكريتها نُهَى فأُفعم قلبه بالسعادة والدفء .

ويمضى بنا الزمن ، نطوى كل يوم خطوة فى الحلقة السابعة . من عجب أن صحتنا تنافس همومنا فى قوتها . وعصر الزعيم الثانى عامرٌ أيضا بالمفاجآت ؛ فهو عصر المنابر والنصر والسلام والانفتاح وعصر أكبر درجات سجلها الفساد فى تماديه واستفحاله ، ولا نكاد نفطن إلى ما طرأ علينا من تغير إلا أن نطّلع لمناسبة على صورة قديمة فنقارن ذاهلين بين ما كنا وما نكون ، ونزداد التصاقا ومودة ، ويمسى قشتمر عضوا فينا كما نمسى ركنا فيه ، ونتبادل النظرات ونتذكر الراحلين ونعرف أن يومنا سيجىء .

ويقول صادق صفوان ذات ليلة :

ــ يا لها من حياة ! ، إبراهيم ابنى يرفض فيمن يرفض الأغنياء ، وزوجتى لا تضع المال فى موضعه اللائق به ، ألا يعكس ذلك شعورهما الخفى نحوى ؟!

إنه لا يخلو من همٍّ وكرب ، شدَّ ما سعِدَ بنصر أكتوبر ثم بالسلام مع إسرائيل وبالاتجاه نحو الديمقراطية ، ولكنه لا يخلو من همٍّ وكرب . وحاول إسماعيل قدرى التسريَةَ عنه فقال :

ــ لا تقلق فإن البنوّة والزوجية أقوى من التفلسف ..

وقال حمادة الحلوانى :

ــ ثم إننا فى زمن المال وأصحاب الملايين .

فقال صادق :

ــ وأين نحن من هؤلاء ؟! ، ما أنا إلا غنى كلاسيكى من الفئة التى يجرفها

العصر نحو الفقر ..

ونردد بعضاً مما يُقال عن الصفقات والإثراء الخيالى . وفى ذلك الوقت فنيت أسرة زوجته ؛ فرحل على بركات الجدّ فَسِيت خديجة الجدّة ثم ست أُمُّونة حماته . وفى سن الرابعة التحقت نُهى بالروضة ، وإذا به يشغل نفسه ويشغلنا بوافد جديد فيسألنا يوما :

ــ ما معلوماتكم عن المقويات ؟!

وكان لا بد أن نبتسم وأن يتورد وجهه ، ولكنه قال :

ــ ليس الأمر مزاحا ..

شعرنا بذلك تماما ، وهنا قال إسماعيل قدرى :

ــ عليك بالأخصائيين ، هذه هى النصيحة ..

وشاركناه قلقه الذى لم يفصح عنه مباشرة ، وحدث أن انتقلت إحسان إلى رحمة الله ، فحزن عليها حزنا صادقا . يقول :

ــ أكمَلُ النساء ، لولا مرضها الثقيل لحظيتُ بين يديها بسعادة لم يعرفها بشر ..

ويقول :

ــ أشد أنواع الغربة هو ما تشعر به فى وطنك .

أو يقول :

ــ لعن الله العصر ، إنه يخطف أقرب الناس إلينا ويحولهم إلى أعداء لنا .. والحقيقة يا أصدقائى أنكم أغلى ما فى الوجود ..

وهو أول من عرف المرض منا ؛ فأصابه روماتيزم مفصلى فظيع الألم ، فتردد على الأطباء ، واعتاد الدواء ، وغيَّر من عاداته الغذائية .. ولكنه كان يقول :

ــ الحمد لله على الإيمان ، إنه النعيم فى الدنيا والآخرة ، كلما تنغص علىّ

صفوٌ أو حزَبَ ألمٌ أو جحد قريب ، أو .. أو ، كلما طاف بى شىء من ذلك تذكرت الله سبحانه ولُذْت برحابه وسلَّمت له أمرى فيلهمنى الصبر والرضا ..

ختام حسن ، أو لا بأس به ، لولا القنبلة التى فجرها تحت أقدامنا حمادة الحلوانى ، إذ قال لنا فور قدومه :

ــ يا جماعة ، وأنا قادم بالسيارة لمحت حرم صادق فى النافذة تتبادل إشارة مريبة مع جار شاب فى العمارة المجاورة !

تلقينا الخبر كأسوأ داهية تنقضُّ علينا من عالم الغيب . تبادلنا نظرات حيرة ، بل استغاثة ، متسائِلة مِلِحَّة ، مثقلة بالكرب . وخرسنا حينا حتى قال طاهر :

ــ لعلك أخطأت الرؤية أو التفسير !

فقال بوجوم شديد :

ــ أنا على يقين مما قلت ، فكروا قبل أن يحضر .

فقال طاهر :

ــ الأمر خطير جدا .

فقال حمادة :

ــ علينا أن نتخذ قرارا .

فقال طاهر :

ــ لا بد من اليقين .

فقال حمادة :

ــ أنا على يقين .

ولذنا بأثقل صمت حتى قال حمادة :

ــ علينا أن نخبره ..

فقال طاهر :

ـــ ربما دمرناه ..

ـــ هل نخفى عنه ما نعلم ؟

فقال إسماعيل :

ـــ لا مفر من أن يعرف بطريقة أو بأخرى ..

فقال طاهر :

ـــ قد تدفعه الفضيحة إلى ارتكاب جريمة ..

وتبادلنا النظرات طويلا حتى تساءل حمادة :

ـــ ما هو الصواب فى نظركم ؟

ـــ أن يعلم وأن ينتهى الموضوع بلا مضاعفات خطيرة ..

وقال إسماعيل :

ـــ الخطأ لا يمكن أن يستمر إلى الأبد ، لا بد من نهاية .

وقال حمادة :

ـــ ليس فى وسعنا أن نخفى عنه .

وقال إسماعيل قدرى :

ـــ دعوا الأمر لى ..

ولما جاء صادق صفوان ، مضى به إلى الحديقة . كنا فى أواخر الخريف وكانت خالية . وغابا ساعة مرت علينا أثقل من دهر ، ثم رجعا صامتين واتخذا مجلسيهما . يا لصورة الإنسان الكريم عند الهزيمة ! . وتشاورنا فى الأمر حتى احتوينا بالتشاور انفعالاته . وطلب مهلة ليراقب الموضوع من بُعد . ومرت أيام ثم لما جاءنا فى ميعاده سألنا :

ـــ ماذا تقترحون ؟

فقال إسماعيل قدرى :

— إليك حلا يتوافق مع حكمتك وتقواك ، الطلاق لا مفر منه ، وعليك أن تحتفظ بنُهَى ، وأيضا لا يجوز أن تترك الأخرى فريسة لفقرها ، وإذن فالاتفاق خير من المحكمة ، استأجر لها شقة وأجْرِ عليها رزقا إكراما لابنتها ، وأكرر فإن هذا ما يتوافق مع تقواك ..

وأعتقد أنه بذل جهدا جبارا لكبح رغبته فى التأديب أو الانتقام ، ولكنه فعل الصواب الذى لم يفعله أحد سواه من قبل ؛ طلَّقها ، حفظَ كرامتها ، احتفظ بنُهَى سادلًا الستار على مأساته . ورجع إلى وحدته ولكنها لم تكن مطْلَقةً هذه المرة ؛ فعلى كثب منه نُهى ومربيتها ، وفضلا عن ذلك فبفضل السن والمرض لم يعد يكابد الحرمان القديم . وجاءه نفر يعرضون عليه شراء دكانه لتحويلها إلى بوتيك من بوتيكات الانفتاح ، فتمتم :

— لم يثبت معى إلى النهاية إلا الدكان وقشتمر .

فقال له حمادة :

— لو كنت مكانك لقبلت الصفقة ؛ المبلغ خيالى ، وأنت آن لك أن تستريح ..

واختلفنا .. ولكنه قال :

— لن يخلفنى أحد فى عملى ؛ إبراهيم له دنياه ، وصبرى تأقلم حيث يقيم ، وحتى متى أعمل من الصباح حتى المساء ؟!

وباع دكانه ، وتفرغ لتربية نهى ، ومهادنة الروماتيزم ، وقراءة القرآن والحديث ، وأدى فريضة الحج ، ولكن ظل ركننا بقشتمر قرة عينه .

حمادة الحلوانى أيضا كان ممن سعدوا بنصر أكتوبر وممن رحبوا بالسلام ، ولكن فى هدوء رصين وما يشبه البوذية . وقد باء زواجه بالفشل فاعترف بذلك وهو يستمتع بشهر العسل . وتلوح فى عينيه أحيانا ابتسامة وكأنما يتساءل

« ماذا فعلت بنفسى ؟ » . والحق أنه لم يشعر بتغيير حقيقى فى علاقته بالجنس الآخر ، ولم تغيِّر زوجته من سلوك المرأة المحترفة ؛ ظلت عشيقة لا زوجة ، تُعنَى ليل نهار بتبرجها ، وتمارس عاداتها المستقرة فى تعاطى الخمر والحشيش ، وتتجاهل واجباتها المنزلية عدا إلقاء الأوامر للخدم ، ولا تكُف عن مطالبها المالية ، ومضت فى طريقها من أول يوم وبلا تدرج . وأمل فى التغيير عندما حبلت ولكن الجنين مات فى بطنها واقتضت الحال جراحة وإزعاجا دون جدوى . وبثَّنا شكواه قائلا :

ـــ لا حوار بيننا خارج الفراش ، قد أسمع ولكننى لا أجد ما أقوله .

وتضاعف شعوره بالوحدة والملل وتمنى دائما أن تغيب عن المسكن الجميل لأى سبب ؛ فالوحدة بدونها أخف على القلب .

توقعنا أن نسمع عن الطلاق فى أقرب فرصة . وسأله صادق صفوان :

ـــ أهى شريرة ؟

فتفكر مليا ثم قال :

ـــ إنها تافهة ، لم تسنح فرصة لإظهار شرها ، إنها تافهة ، الاحتراف يقتل الإنسانية فى قلب المرأة ، وفى هذا تكمن التعاسة الحقيقية ..

وسأله صادق بنبرة حزينة :

ـــ وماذا تنوى أن تفعل ؟

فقال ضاحكا :

ـــ الطلاق طبعا ..

وبعد صمت قصير واصل حديثه :

ـــ ولكن الأمر ليس سهلا ، ولن يتم إلا من خلال معركة عنيفة ، فضيحة وجرسة ومحكمة وابتزاز ، لن تتورع عن الاشتباك معى أو التعرض لى فى الطريق ..

فقال طاهر عبيد :

ـــ قلت يوما إن المحترفات أفضل من المصونات ..

ـــ دعنا مما قلت ، ستحاول أن تخرج بأكبر ربح ..

فقال صادق :

ـــ اشتر راحة بالك ..

هذا ما صمم عليه ، وبدأ بإعلان فتوره ، ولم يكن اعتاد على الصبر على الكدر . وراحت ترميه بنظرات مؤنبة متحدية . وأخيرا صارحها قائلا :

ـــ الظاهر أننى لم أخلق للحياة الزوجية .

فتساءلَت بِقِحَة :

ـــ تزوجتنى للتجربة ؟

فقال برقة :

ـــ على خير ننفصل مثلما اجتمعنا ، أرجو أن تغفرى لى خطئى ..

فسال لسانها بأقوال بذيئة ، ولاذ بالصمت والصبر ، وعرض عليها أن يبحثا عن اتفاق يرضى الطرفين بعيدا عن المحكمة . طالبت بمائة ألف جنيه ، فآثر الاحتكام إلى حكم القضاء ، وبعد نزاع وأخذ ورد رضِيَت بربع المبلغ . وقال لنا :

ـــ إنها خسارة فادحة فى هذا الزمن المجنون ، لا قيمة لثروتى اليوم ، والغلاء يحرق الأخضر واليابس ، إنى أدفع أربعين جنيها أو خمسيناً ثمنا للقرش الذى كنت أشتريه بخمسين قرشا ! ، ولكن الملل يعتبر رحمة بالقياس إلى معاشرة محترفة تافهة ..

فقال له إسماعيل قدرى معزيا :

ـــ على أى حال إذا أردت أن تتزوج زواجا حقيقيا ..

(فشتمر)

فقاطعه بشراسة :

— توبة ! ..

واعتبر رجوعه إلى الحياة التى سبق أن ضاق بها غُنماً وأىّ غنم . وحدث أن انقطع عن قشتمر على غير عادة سابقة ، مرت ليلة ولحقت بها أخرى ، فذهب الأصدقاء يتحرون عن سر غيابه فى مظانه ما بين خان الخليلى والعوامة وشقة الزمالك ، وعرفنا الحقيقة المزعجة ، وهى أنه يعالج فى مستشفى المعادى على إثر ذبحة صدرية دهمته . وقصدنا المستشفى ونحن من القلق فى نهاية . واستقبلنا هناك أخوه توفيق وشقيقته أفكار فأهديا إلينا السلام والطمأنينة بأنه عبر الخطر ولكنه ممنوع من الزيارة بضعة أيام ، وقد صار توفيق صورة من يسرى باشا فى آخر أيامه ، أما أفكار فتبدت عجوزا عجفاء مسحاء مكرمشة الوجه كأن لم يجلس الجمال يوما على عرش كينونتها ويتيه ويتحكم . وتمتم طاهر عبيد :

— ما أكثر الأردية التى يلفعنا بها الدهر .

ولما اجتمعنا به بعد يومين سُرَّ بوجودنا حوله سرورا طفح به وجهه الذابل ، وحدثنا عن الذبحة فقال :

— حضورها وحشى مرعب ، فإذا مرت استرد الإنسان طبيعته وكأنه لم يكن على مبعدة قيراط من الموت ..

وقال إنه كان وحده فى غاية من السطل ، وقام ليتناول عشاءه فى تلك الساعة المتأخرة من الليل عندما اشتعل مس كهربائى فى أعلى صدره ، وعصره الألم عصرا وأوشك أن يختنق فتأوه وصرخ وانطرح على الأرض يتقلب على الجنبين ، واتصل الخادم ببيت شقيقه فجاءه بصحبة طبيب صديق ثم نقلوه إلى المستشفى ..

وغادر المستشفى بعد ثلاثة أسابيع ورجع إلى قشتمر ليملأ مكانه الذى لا يملؤه سواه . وطرق بابه الدواء والرجيم . قال :

ــ يريدون سلب اللذة الباقية لى فى الحياة ..

فقال صادق صفوان :

ــ أيضا للروماتيزم رجيم خاص وللضرورة أحكام ..

فقال حمادة :

ــ ولكن الحياة إما أن تكون حياة أو لا تكون .

وتبين لنا فيما بعد أنه يواظب على تناول الدواء ، أما الرجيم فتخطاه كأن لم يكن . استمسك بعاداته الغذائية بكل جرأة واستهانة ، ولم يمتنع عن الكيف ولم يقلل منه . وخاطبناه بلسان الوعظ فأمطرنا بسخرياته حتى سأله طاهر عبيد :

ــ هل قررت الانتحار ؟

فقال ضاحكا :

ــ قررت ألا أتهاون فى حب الحياة .

حتى النساء لم يقلع عنهن تماما ، يستضيفهن ولو مرة فى الشهر . وسأله صادق باسما :

ــ ألا تعفيك السن من هذا الواجب ؟

فقهقه قائلا :

ــ لكل حال ما يناسبها !

أما طاهر عبيد فقد وجد نفسه تحت حكم الزعيم الثانى فى عالم غريب كريه لا يحتمل ، وأساء به الظن منذ أول ساعة وعدَّه عميلا لجميع القوى الرجعية فى الداخل والخارج . وما لبث أن عزل من رئاسة تحرير الفكر دون أن يفصل من المجلة ، فغضب وغضبنا معه وامتنع عن الكتابة فلم يهتم به أحد ، ولم يظهر له أثر فى أى جهاز من أجهزة الإعلام . ولما حدث النصر العظيم تلقاه بفتور غريب ، وراح يرجع جذوره إلى البطل الراحل . إنه الوحيد فى شلتنا الذى عبَدَ الراحل فى حياته

وقدس ذكراه بعد مماته ، ولولا صداقتنا العجيبة لربما ضاق بنا وانصرف عنا ولكنه أبقى علينا وصمد لنا يلقى الجد بالجد والهزل بالهزل . واقتصر نشاطه فى تلك الفترة على نشر بعض القصائد فى المجلات العربية التى تصدر فى الخارج . ولما جاوز الستين بقليل صادفته تجربة جديدة لم تجرِ لأحد فى تقدير ؛ فى ذلك الوقت عرف محررة جديدة تُدعى أنوار بدران التحقت بالفكر . وضح أنها كانت من قرائه وأن إعجابها بشِعره فاق كل أحلامه ، وقد زارته مرات فى قشتمر وتعرفت إلينا ، وعرفناأنها خريجة آداب قسم اللغة الإنجليزية ، ووجدناها غاية فى الذكاء وعلى قدر عظيم من الثقافة بالقياس إلى زمانها وعمرها البالغ خمسة وعشرين عاما ، سمراء رشيقة عادية المَلاحة صغيرة العينين وبأنفها فطس خفيف ولكنها فى الجملة جذابة . ومن واقع الملاحظة الدقيقة سأله إسماعيل قدرى ذات ليلة :

— هل تحب تلميذتك ؟

فأجاب بإيجاز وصراحة :

— نعم ..

فتساءل حمادة الحلوانى :

— هل اللعب على الطريقة العصرية ممكن ؟

فأجاب طاهر :

— ولكن عاطفتى جادة !

فقال صادق صفوان :

— ظننتك أحببت بما فيه الكفاية ..

— ليس للحب قانون !

— ورئيفة ؟!

— انتهت من زمن غير قصير ..

فقال إسماعيل قدرى ضاحكا :

— شلتنا تستحق أن يخصص لها فصل فى كتب الجنس !

فقال طاهر مستسلما :

— الحذر لا ينجى من القدر !

ومن الغريب أنه فى ذلك الوقت حملت ابنته درية لأول مرة منذ زواجها ، حمات بعد أن قاربت الأربعين ، وبعد أن يئست من الحمل واستشارة الأطباء ، وبدلا من أن ينتظر طاهر حفيدَه فى وقار مناسب أسلم نفسه للحب . وجاءنا ذات ليلة ثملا بفرحة شاملة لم تُـر عليه منذ زمن طويل ، وقال لنا قبل أن يطلب القهوة :

— سنتزوج !

ولم يسعنا إلا إزجاء التهانى ، وسأله صادق :

— ورئيفة ؟

فمط شفته السفلى وقال :

— كان لا بد من المصارحة ، موقف عسير ومؤلم ولكننى متعود على مواجهة التحديات ، وهى موقنة من أنها لم تعد تملك ما تعطيه .. وطمأنتُها من أول الأمر بأنها ستبقى فى بيتها معززة مكرمة ..

وصمت قليلا ثم قال فى حياء وتأثر :

— قالت لى بهدوء ولكن بصوت متهدج وعينين شارقتين بالدمع « تقبل رثائى ولكن ما باليد حيلة » فقلت لها « أنا مقتنع بأننى مخطئ » فقالت « لا شك فى ذلك ، أوتيتَ حكمة كبيرة فى وقت لم تكن فى حاجة ملحة إليها ، وفقدتها فى ساعة الحاجة إليها ، ربنا معك » .

تخيلنا بأسى شديد الزوجة التعيسة التى هجرها زوجها بعد أن تنكر لها زمانها

(فشتمر)

وتركها نفاية . وقال صادق صفوان :

— لا شك أنها تتجرع من المرارة ما لا يتصوره أحد ، رأيت إحسان فى حال مثلها رغم وضوح عذرى وقوته ..

لكن السعادة استخفته وجرفت فى طريقها المشاعر المترددة ، يبدو أحيانا كطفل برىء فيذكرنا بأيام نصره الخالية . وقال لنا على سبيل الاعتذار :

— لا يوجد فى دنيانا شىء صحيح سليم ، فلماذا أطالب أنا بذلك ؟

ولأول مرة تخالفه درية وتُدِين قراره . قالت له :

— بابا ، ما كنت أتصور ..

فقال لها باسما :

— إنه شىء طبيعى ويحدث كل يوم .

فقالت برقة :

— وماما ؟ ، نحن مطالبون بالوفاء وهو جميل كالحب ..

أعاد علينا حوارها بفخار خفى ، ولكنه مضى فى سبيله باندفاعه المعروف عنه منذ قديم . وقال لنا كالمعتذر :

— الحب هو الحب ، ولدَى حضوره تتلاشى القوَى المضادة جميعا فى غمضة عين .

وواجهته — وهو يبحث عن عش الزوجية الجديدة — مشكلة لم نعرفها فى زماننا الأول وهى العثور على شقة ، ولكن حلها لم يكن مستعصيا ؛ فبعد تعب غير قليل وجد شقة فى الجيزة بإيجار حديث مرتفع وبلا خلو ، واستقبل حياته الجديدة كأنما يدخل دنيا لأول مرة ، ولم تسعده أنوار بالحب وحده ولكنها أنعشته بذكائها وصداقتها وعشقها الصادق للثقافة ، بالإضافة إلى تذوقها العميق لشِعره . قال لنا ذات ليلة :

— إنها تصلح أن تكون عضوا فى مجلسنا هذا !

وقررتْ تأجيل الحمل فسرَّه ذلك جدا ، ولكنه لم يعرف لها انتماء سياسيا ، فهى تسمع وتقرأ ولا تصدق ولا تهتم ، ويتركز وعيها فى الشعر ونقده ومحاولة قرضه أحيانا . ولما باح لها بناصريته قالت له :

— لن تعثر على جدية حقيقية إلا فى التيار الدينى ..

فسألها منزعجا :

— أهذا إعجاب ؟

— أبدا ، إنهم وحدهم يقفون على أرض صلبة فى محيط يمور بالاضطراب والفساد ..

فسألها وهو يزداد قلقا :

— هل يلوح لكِ أمل من ناحيتهم ؟

— أبدا ..

ثم متسائلة :

— لماذا لا تهاجر ؟ .. الغلاء يتمادى يوما بعد يوم ، وفى الخارج توجد فرص رائعة ..

— لم تنعدم كل الفرص فى الداخل ، ها هى مسارح القطاع الخاص تطلب منى أغان واستعراضات ..

فهتفت :

— كيف تستهين بسمعتك وترضى بالهبوط ؟!

وقلنا له صراحة إنه ليس من الحكمة فى شىء أن يفكر إنسان فى الهجرة وهو يقترب من منتصف الحلقة السابعة . وقال له صادق صفوان :

— تلبيتك لطلبات القطاع الخاص ستمده بأسباب للارتفاع !

والواقع أنه استجاب لمغريات القطاع الخاص تحت ضغط ظروف المعيشة وارتفاع الأسعار ومسئوليته فى الإنفاق على بيتين . وبذل أقصى ما يملك من مهارة ليتجنب الهبوط ولكنه شعر بأن صورته المثالية قد اهتزت فى عينى أنوار . وازدادت أرباحه ولكن لاحت فى عينيه نظرة شاردة أنذرت بما وراءها وبررت مخاوفنا . وتوقعنا مع جريان الزمن أن تعزف الرباب أنغام الأسى التى أَلِفنا سماعها من صادق وحمادة . وحملت أنوار فى أثناء ذلك مختارة ، ولكنها كابدت ولادة متعسرة وأنجبت طفلة ميتة . وقال لنا طاهر :

— ليس هذا فحسب ، ولكنها اقتنعت أخيرا بأنها لن تكون شاعرة وكفَّت عن المحاولة ..

على أى حال فإنها تتقدم كناقدة ، وما زال بوسعها أن تحمل من جديد وأن تلد ثمرة حية رائعة . وغلب على طاهر تذكر ماضيه المضىء فى ظل حاضره ، فتضاعف همه وقلقه ، وبدا كأنه يفيق من سحر عشقه وأنه لا يجد فى قبضته إلا هواء . وفى ذات ليلة اعترف لنا بصراحته المعهودة قائلا :

— انتهى صاحبكم !

تطلعنا إليه متسائلين عما يعنى فقال :

— استقل كل منا بحجرة منفردة ..

ثم بصوت هامس :

— ما زالت العلاقة بيننا كأحسن ما يكون ..

وعُرض على أنوار عمل فى مجلة عربية تصدر فى لندن ، وشعر برغبتها فى السفر ، فضلا عن أنه لم يجد مبررا للرفض . ولعل صادق صفوان كان الوحيد بيننا الذى قال له :

— هذا وضع غير لائق .

ورجع طاهر إلى شارع السرايات ليقيم من جديد مع رئيفة ودرية وإبراهيم وحفيدته الجديدة نبيلة . واندفع فى ميدان الفن السهل بعيدا عن أنوار التى عذبته فترة كأنها ضميره الغائب ، وكان قد أحيل على المعاش ولكن المال جرى بين يديه فى فيض ويسر حتى قال لنا ساخرا :

ـــ أصبحت من أغنياء الانفتاح ..

ولكنه فى أعماقه حزين حزين ، يطارده الشعور بالسقوط . وسألنا مرة :

ـــ ما أعذب أمل فى حياتى ؟

فأجابه حمادة ساخرا :

ـــ أن يموت الزعيم أو يقتل !

ولكنه أجاب نفسه قائلا :

ـــ إنه الموت ، إنى أود الموت وأستجديه ..

وسكت حتى انتهت احتجاجاتنا ، ثم قال :

ـــ لولا درية ، أو لولا درية ونبيلة لانتحرت ، يمنعنى حبى لهما وخجلى منهما ..

فقال له إسماعيل قدرى :

ـــ سيبقى شِعرك القديم شامخا ويغفر لك ما تأخر .

وقال له صادق صفوان :

ـــ وهل من الإجرام أن يدفع إنسان عن نفسه غائلة الجوع والفقر ؟!

وتردد قليلا ، ثم قال بصراحته الطيبة :

ـــ وكيف تعد أعمالك الأخيرة هابطة ؟! ، إنها فى نظرى كأعمالك الأولى فى جمالها إن لم تزد !

وكابد وهو يقترب من السبعين اضطرابا فى البول غير حميد ، فاكتشف

الأطباء خللا فى البروستاتا ، ووصفوا له علاجا كتجربة فإن لم تفلح فلا مناص من الجراحة . واستقبل المرض باستهانة ظاهرة ، وتمتم برجاء :

ـــ لعلها النهاية .

وذات ليلة ونحن راجعون من السهرة قال صادق :

ـــ ما رأيكم ؟ ، إنى أفكر فى أن أقترح على طاهر تطليق زوجته أنوار ؟

فسأله إسماعيل عن السبب فقال :

ـــ إن لم يبادر هو فستسبقه إلى ذلك وتضاعف من شجونه ، هل تتصورون أن تعيش فتاة فى سنها فى تلك البلاد بلا قلب ؟

ـــ ألا يضيف الاقتراح إلى أحزانه حزنا جديدا ؟

ـــ كلا ، لقد خرجت من حياته إلى الأبد .

وكاشفه صادق برأيه فى الليلة التالية ، وكأنه لم يفاجأ بالاقتراح وقال :

ـــ فكرت فى ذلك طويلا ، ومن العدل أن تجرب حظها مرة أخرى ..

وحرر لها رسالة رقيقة بطلبه ، وتم الطلاق ، وتنفسنا جميعا الصعداء . ولكن يخيل إلىّ أن طاهر لم يكفّ عن الرغبة فى الموت وانتظاره .

وزهد إسماعيل قدرى فى المحاماة فانتظر حتى يستحق المعاش وأحال نفسه عليه . وفى فترة عودة الأحزاب ، وعودة الوفد بالذات ، خفق قلبه وناوشته أحلامه القديمة . حقا إنه اليوم شيخ أبيض الرأس ولكن الحزب الجديد عامر بذوى الرءوس البيضاء ، ومنهم من يكبره بعقد أو عقدين من السنين . ولكن طاهر عبيد سأله :

ـــ ما رسالة الوفد اليوم ؟

فأجاب بقوة :

ـــ الدفاع عن الديمقراطية .

فقال طاهر :

ــ والدفاع عن الاقتصاد الحر ثم تصفية ثورة يولية ، وبذلك يكرس نفسه كالحزب الأول للرجعية ..

ــ لا يمكن أن يتجاهل مطالب العدالة الاجتماعية وهو أول من سبق إليها فى إطار زمانه ..

ــ هذا ما يقوله الحزب الوطنى ، فما معنى أن يقوم حزبان لتحقيق رسالة واحدة ؟!

وجعل يفكر فى الموضوع ، ويتابع الحوار بين عقله وقلبه ، ولكن الظروف اضطرت الوفد إلى تجميد نشاطه فأعفته من حيرته .

وبدا إسماعيل مع مرور الأيام أصحّنا بدَناً وأيقظنا فكرا وأشغفنا بالاطلاع المستمر . وما زالت ست تفيدة متشبثة بالحياة رغم تفشى الشيخوخة فى جسدها وروحها ، حتى أوشكت أن تنسى ابنها المهاجر . وأكبر ما واجه الأسرة فى ذلك الوقت مشكلة أعباء المعيشة ؛ فرغم إيراد ست تفيدة ومعاش إسماعيل ومدخراته من العمل لم تطمئن إلى التغلب على الغلاء مع المحافظة على مستوى معقول من الحياة ، وكانت ست تفيدة تملك خرابة فى السبتية فاقترح صادق على إسماعيل بيعها والانتفاع بارتفاع سعر الأرض الأهوج . وأقنع إسماعيل حرمه بذلك ، وبيعت الخرابة بخمسين ألفا من الجنيهات ، ووهبته هدنه طويلة يطمئن بها القلب ويستقر . وغلب عليه بوضوح ميله إلى الروحانيات والتصوف ، واستشهاده بيننا بأقوال كبار الصوفيين وشرح رموزها ، وتفرَّد بذلك فلم يحظ بمن يستجيب له أو يأنس إليه ؛ فصادِق صفوان مؤمن بسيط لا قِبَل له بالشطحات أو الرموز ، وحمادة هواهُ فى التنقل ، يتصوف معه ليلة وينقلب عليه فى الليلة التالية فيسخر منه ومن جميع الأقطاب ، أما طاهر فلا دين له ، وقد سأله مرة :

— أأنت دارس محب للاستطلاع أم تبغى السير فى الطريق ؟

يا له من سؤال يطرح على رجل يؤمن الإيمان كله بالعقل والعلم ولا يستطيع أن يتخلى عنهما . وأجاب :

— الإلهام وسيلة للمعرفة كالعقل ولكلٍّ منهما مجاله ..

فقال طاهر :

— أما العقل فنعرفه معرفة حميمة ، أما الإلهام فنسمع عنه فقط ..

— ويمكن أن نعرفه أيضا ، وقد عرفه الكثيرون ..

فابتسم طاهر فى استهانة وقال ساخرا :

— علينا أن نتوقع أن تجيئنا يوما مرتديا خرقة معرِضا عن الدنيا وما فيها ..

فقال بحزم :

— كلا ، لست من هؤلاء ، السر يوجد فى الدنيا كما يوجد وراءها ، والسماء والأرض والأشياء تخاطبنا فى كل حين ، وعلينا أن نعى ما تقول ، فأنا أعشق السر كما يتجلى فى هذه الدنيا ، كما سأعشق وجوده الآخر بعد الموت ..

ويضحك طاهر قائلا :

— إنها الشيخوخة والخوف من الموت ..

فيقول إسماعيل باسما :

— إنه الحب ، وهو أكبر من الشيخوخة والخوف ..

— جميل أن تبرر تعلقك بالدنيا على هذا النحو ..

— فهتف :

— كلا ، إنه تعلق من نوع خاص ، تعلق مقدس ، ولا يخجل من الاعتراف بأن قمة الجمال فى الدنيا يتركز فى المرأة !

ويقهقه حمادة الحلوانى قائلا :

ـــ لا داعى للف والدوران ، قل إنك تستقبل المراهقة الثانية ، وأنك ترسم خطة لارتكاب الخيانة الزوجية ..

فقال باسما :

ـــ علىّ أن أتحلى بالصبر ..

وضحك طاهر كما كان يضحك قديما وقال :

ـــ وضحت طريقتك يا شيخ إسماعيل ، ومقاماتها هى الثروة والتأمل والحب ثم المقويات الجنسية !

على أى حال فإن سلوك إسماعيل لم يجاف خيال طاهر فى الظاهر على الأقل ، ورفض بكل قوة أن يعدَّ مسلكه هروبا ؛ فإنه لا يعرض عن الحياة حتى آخر لحظة ولا يزهد فى حبها وتصور الكمال لها ، ولم يسلم نفسه للتأمل والحب إلا بعد أن أدى واجبه فى نطاق قدراته عمرا طويلا . ولم نعرفه كما نعرفه اليوم صفاء وعذوبة ، فهو لا يجرى وراء الملاح كما يجرى حمادة مثلا ، ويقينا إنه يجد فى الحب ما لا يجد أى عاشق عادى ، بل يجد فى الجنس ما لا يتصوره أى رجل عادى ! ، ولكن حق لصادق صفوان أن يقول :

ـــ الشرطة لا تعرف لهذا السلوك إلا وصفا واحدا هو المنصوص عليه فى قانون العقوبات ، فربنا يستر عليه !

* * *

هلموا نمضى معا فى الحلقة الثامنة . ركن قشتمر باق ، ربنا يديمه ! المكان المستقر الوحيد مهما تثر العواصف من حولنا . ولا تحول جدرانه القديمة بيننا وبين الدنيا . وتمر السنون سراعا فلا تمنع قلوبنا من الخفقان أو ألسنتنا من الكلام ، حتى الحلم تنعم به ، فضلا عن ذكرياتنا المشتركة ومودتنا الأصيلة ، تمدنا بين الحين والحين بنادرة نرددها أو ابتسامة نبتسمها . حقا يرعبنا الغلاء ،

ويكدرنا الفساد ، ويحزننا الظلم . ويوم قُتل الزعيم فزعنا وتساءلنا عما يخبئه لنا الغد . ورغم الشيخوخة والروماتيزم والذبحة والبروستاتا والتصوّف ذهبنا متوكئين على العِصىّ إلى مركز الاستفتاء بالمدرسة القديمة ببين الجناين لننتخب الرئيس الجديد الذى تعلقت به آمالنا بقدر تعلقها بالأمان والحياة .

وتلقى صادق صفوان من الروماتيزم آلاما كثيرة ، ولكن بيته سعد بنمو نُهى ودخولها المرحلة الإعدادية وبزيارات إبراهيم ودرية ونبيلة له . ولم تنقطع المراسلات بينه وبين صبرى الذى وعده بزيارة قريبة لمصر هو وأسرته التى كونها فى الخارج . وأصبح صادق يصلى وهو قاعد ، ويمضى وقتا كل يوم فى سيدى الكردى ، وقد هبطت عليه الشيخوخة بجمالها الخاص الذى تجلى فى بياض رأسه وشاربه ووقار وجهه ، وربما تساءل :

— تُرى كيف يكون زمان نُهى ونبيلة ؟!

فيفتح باب الحديث عن الشباب وتحديات الواقع له وما فعله الماضى بحاضرهم ومستقبلهم . فيقول حمادة الحلوانى :

— أبناؤكم أفضل حظا من الملايين الضائعة ..

ويقول إسماعيل قدرى :

— عسى أن تصهرهم الشدة فتخلق منهم عمالقة ..

فيستطرد حمادة :

— عايشنا الوطن مع ثورتين ، وصادفنا من الآمال والإحباطات ما لا يعد ولا يحصى ، وها نحن نشهد الوطن مطحونا فى مأزق لم يجر لأحد فى خاطر ..

ويقول إسماعيل :

— لا أعفى أحدا من مسئوليته ، ومن الخطأ أن نحصر الذنب فى شخص أو شخصين ..

وقدمنا أنفسنا للمحاكمة ، فطال الجدل بين دفاع وهجوم ، وعجز صديقنا حمادة عن الدفاع عن نفسه . ثم حدثنا صادق عن ابنته نُهى فقال :

ــ يسرنى أنها متدينة ولكنها مولعة بالأغانى الإفرنجية ، عاشقة للتليفزيون ، ورغم تفوقها الدراسى فهى لا تحب الثقافة المقروءة ، ولا اهتمام لها بالشئون العامة ..

فقال طاهر ضاحكا :

ــ إنها متصوفة على طريقتها الخاصة !

ونظر صادق فى وجوهنا الشائخة وقال ضاحكا :

ــ حقا أصبحنا هياكل عظمية ، وسيكون أتعسنا من يمتد به العمر بعد رحيل الآخرين ..

أما حمادة الحلوانى فكأنما اعتاد ضجره ، فصبر وندرت شكواه ، وكلما جرى الزمن صالح الحياة ورضى عنها ، ولم يحتمل قيادة السيارة وفكر فى استخدام سائق ولكن هاله الأجر الذى طالب به ، فركن السيارة واستعمل التاكسى . وعاد يقول :

ــ لا قيمة اليوم لأغنياء الزمن الماضى ..

بقى له من لذائذ الحياة الطعام والحشيش ، وحتى الحشيش عجز عن تدخينه فى الجوزة ، أما القراءة فلم يعد يستمتع بها أكثر من ساعتين فى اليوم . وسمع صادق صفوان يقول مرة :

ــ من الحكمة أن يفترض الكفرة منكم أنهم مخطئون ولو بنسبة ١٪ وأن يعملوا فى هذا النطاق حسابا للآخرة ..

ولم يمر قوله بلا أثر كما مر بطاهر عبيد . لم يكن غريبا عن الإيمان كل الغربة ، فقد طاف به كما طاف بكل رأى وعقيدة ، تبنَّى مرة الإسلام ومرة المسيحية وثالثة

اليهودية ، لذلك فكر فى قول صادق باهتمام . ولما جاء رمضان قرر أن يصوم ويصلى ، فعاش مسلما حوالى الأسبوع ثم ارتد أو نسى ، كما نسى الذبحة ، بل كدنا ننساها معه ، وإن حدث وحرك أحدنا الموضوع قال :

ــ مجنون من يعذب نفسه فى مثل عمرنا حرصا على الحياة !

ويشرد أحيانا ثم يقول :

ــ أى مقلب نشربه لو أن إحساسنا بالموت يستمر معنا فى القبر ولو لمدة قصيرة !

وسأل صادق صفوان يوما :

ــ ألا تندم على أنك لم تتزوج ولم تنجب ؟

فأجاب بصدق :

ــ مطلقا ، ولكنى ندمت على تجربتى السخيفة مع الزواج ..

وطاهر عبيد يزداد ثراء وقرفا ولم يخِف وزنه ، ولا يعفيه مرضه من إزعاج وكدر بين الحين والحين ، وهو وإن ثابر على رغبته فى الموت إلا أنه يخاف المرض ومضاعفاته . ووافته أنباء بأن أنوار بدران تزوجت من زميل فى المجلة فأبلغَنَا الخبر دون مبالاة . ويقول له صادق صفوان :

ــ كيف تتمنى الموت وبين يديك دريةِ ونبيلة ؟!

فيقول طاهر مقهقها :

ــ حقوق الإنسان ينقصها حق جديد هو حقه فى الموت إذا شاء ليتولاه الطب الشرعى بأيسر السبل ..

وإسماعيل قدرى يمضى فى طريقه من مقام إلى مقام ما بين التأمل والحب والجنس ، وصحته صامدة بصورة عجيبة . وتمر الأعوام ولكنه يبدو أصغر منا بخمس سنوات على الأقل .

وقال له طاهر عبيد :

ـــ الطاقة الجنسية لها حدود على أى حال !

فقال بطمأنينة :

ـــ ربما ، ولكن تبقى معى الأزهار والنجوم والليل والنهار ، ولا تنس هذا الركن الأمين فى قشتمر ، ركن الوفاء والمودة الصافية ..

أخبرنا أن ابنه هبة الله ذكر له فى آخر رسالة تلقاها منه أنه يفكر فى العودة إلى مصر وإنشاء مشروع مناسب ، فسررنا بالخبر .

* * *

وتسير الأيام بلا توقف ، لا تعترف بهدنة أو استراحة ، نحن نكبر وحبنا يكبر ، إن غاب أحدنا ليلة لعذر قهرى قلقنا وتكدرنا . وفى لحظا الإحساس الفائق يسمعنا الزمن صلصلة عجلاته ، ويرينا قبضته وهى تطوى الصفحات الأخيرة .

ويتساءل حمادة الحلوانى :

ـــ ترى كيف تجىء النهاية ؟

فى البيت ؟ .. فى الطريق ؟ .. فى المقهى ؟ . يسيرة رحيمة أم خشنة وحشية ؟ . وسرعان ما نهرب إلى شتى الأحاديث . ومضت الذاكرة تتمرد فلم يعد حمادة وحده . ويناقش موضوعا ذات يوم ولكنه ينسى اسم من يريد أن يستشهد به ، ولما أعياه تذكُّره قال :

ـــ أقصدُ صاحب نظرية الموناد !

فيتذكره إسماعيل قائلا :

ـــ ليبنتز ..

فيتنهد قائلا :

ـــ كيف غاب عنى اسمه ؟! .. هل يكون ختامها الأميَّة من جديد ؟!

ورحنا نتذكر مَن طواهم النسيان ، صفوان النادى وزهرانة كريم ، رأفت باشا الزين وزبيدة هانم عفت ، إحسان ، يسرى باشا الحلوانى وعفيفة هانم نور الدين ، عبيد باشا الأرملاوى وإنصاف هانم القللى ، قدرى سليمان وفتحية عسل ، وعشرات من الزملاء والمعارف .

العباسية القديمة هل بقى منها أثر ؟ ، أين الحقول والحدائق ؟ ، أين النخلة ومجلسها وغابة التين الشوكى ؟ ، أين البيوت ذوات الحدائق الخلفية ؟ ، أين السرايات والقلاع والهوانم ؟ ، هل نرى اليوم إلا غابات من الأسمنت المسلح ومظاهرات من المركبات المجنونة ؟ .. هل نسمع إلا الضجيج والضوضاء ؟ ، هل تحدق بنا إلا أكوام الزبالة ؟!

— كلما ضن الحاضر بنبأ يسر هرعنا إلى الماضى نقطف من ثماره الغائبة . نفعل ذلك رغم وعينا بما فيه من خداع وكذب ، وعلما بما أترع به الماضى من سلبيات وآلام ولكننا لا نستطيع أن نرد النفس عن الاستمتاع بذلك المورد الملىء بالسحر والسراب .

وقال لنا صادق صفوان يوما :

— أقترح أن نحتفل بمرور سبعين عاما على صداقتنا الوطيدة ..

وضممنا الاقتراح إلى صميم قلوبنا . وقال حمادة :

— لنحتفل به فى خان الخليلى ..

فقال طاهر عبيد :

— العوامة أفضل ..

ولكن إسماعيل قدرى قال :

— بل فى قشتمر ، فنحن وصداقتنا وقشتمر كلٌّ لا يتجزأ .

ووافقنا على ذلك دون تردد ، وأملَى المكان على الحفل بساطة تناسب أعمارنا

وصحتنا ، فاكتفينا بشراء تورتة ، وأعددنا الشاى ، وأخذ كل منا قطعة ، وفرقنا الباقى بين صاحب المقهى والجرسونات وماسحى الأحذية . وتراءى لنا أن يقول كل واحد كلمة للمناسبة ، فقال صادق صفوان :

ـــ أقول وأنا أستعيذ الله من الحسد والحاسدين أن سبعين عاما مرت فلم تند عن أحدنا هفوة تسيء إلى الوفاء من قريب أو بعيد ، ألا فليدم هذا الصفاء وليكن مثلا للعالمين ..

وقال حمادة الحلوانى :

ـــ لو جمعنا الضحكات التى روينا بها قلوبنا المنهكة بكؤوس الأحداث لملأت بحيرة من المياه العذبة الصافية ..

وقال طاهر عبيد :

ـــ أحقا نحن نحتفل بمرور سبعين عاما على صداقتنا ؟ ، لقد مرت على بلادنا سبعون عاما ، أما صداقتنا فلم يمر عليها سوى دقيقة واحدة ..

وقال إسماعيل قدرى :

ـــ ينطوى التاريخ بما يحمل ويبقى الحب جديدا إلى الأبد ..

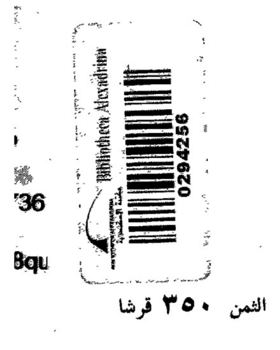
وكدت أجنح إلى تذكر عازف الرباب القديم ، ولكن صادق صفوان أيقظنى من سباتى وهو يتلو بصوت واضح :

ـــ ﴿ والضحى * والليلِ إذا سجَى * ما ودَّعك ربُّك وما قلَى * ولَلآخرةُ خيرٌ لك مِن الأولَى * ولَسوف يُعطيك ربُّك فترضَى * ألَمْ يجدْك يتيماً فآوَى * ووجدك ضالًّا فهدَى * ووجدك عائلا فأغنَى * فأما اليتيمَ فلا تقهرْ ، وأما السائلَ فلا تنهرْ * وأما بنعمةِ ربِّك فحدِّثْ * ﴾ ..

(تمت)

رقم الإيداع : ٨٦١٨/٨٨
الترقيم الدولى : ١ ــ ٠٤٧٢ ــ ١١ ــ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



الثمن ٣٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه